روايات مصرية للجيب

١

فارس الأندلس

جاسوس قرطبة



من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضى والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ــ الفارس ..

انتفضت معرفة جواد عربى أصيل ، وتطايرت فى نُعُومة ، قبل أن تستقر على جبين الجواد الأبيض القوى ، الذى رفع رأسه ، يستقبل الخيط الأوّل للشمس ، مطلقًا صهيلًا خافتا ، وضاربًا الأرض بحوافره فى رِفق ، ثم مال برأسه ، وهو يديرها إلى خيمة كبيرة ، داعب أستارها بِمَنْخِره ، وهو يواصل صهيله الخافت ، قبل أن تمتدَّ يد قوية ، تزيح الأستار فى هدوء ، ويبرز من الخيمة شاب قوى ، ممشوق القوام ، متين البُنيان ، وسيم الطلْعة ، حليق الوجه ، انسدلت خُصلة من شعره الفاحم الناعم على جبينه ، وابتسم الشاب وهو يربِّت على عنق الجواد الأبيض ، قائلًا :

ــ صباح الخير يا رفيق العمر . هل نعمت بنوم جيِّد الليلة ؟

أطلق الجواد الجميل صهيلًا آخر ، وهو يمسح رأسه وعنقه بصدر الشاب القوى ، الذى واصل تَرْبِيتَهُ على عنق جواده ، وراح يمرِّر أصابعه فى معرفته الناعمة ، حتى سمع صوتًا حانيًا يقول فى نَبْرة طيِّبة :

ـــ صباح الخير يا ولدى

تخلى الشاب عن جواده الأبيض ، والتفت إلى صاحب الصوت ، واعتدل فى احترام ، وهو يقول للشيخ الأشيب ، ذى اللّحية البيضاء الوقُور ، والوجه المَهيب :

ـــ صباح الخير يا عمّاه

ابتسم له الشيخ ابتسامة حانية ، ثم اتجه نحو صخرة كبيرة مصقولة ، واتخذها مجلسًا له ، والتفت إلى خيمة ثالثة صغيرة ، وهو يسأل :

ـــ ألَمْ يستيقظ (مهاب) بعد ؟

برز من الخيمة الثالثة رجل أشيب الفَوْدَيْن ، واضح القوة ، تناثرت الشُعَيْرات البيضاء ـــ على نحو عشوائىّ ـــ فى لحيته القصيرة وشاربه ، وهو يقول فى تراخ :

ـــ لقد استيقظت يا سيِّدى .

سأله الشاب فى شغف .

ـــ ما رأيك فى قليل من الرياضة ؟

عقد (مهاب) حاجبيه ، ومطّ شفتيه ، قائلًا :

ـــ أليس من الطبيعى أن يتناول المرء طعام إفطاره أوّلًا ؟

أطلق الشاب ضحكة مرحة ، وقال :

ـــ صدقت .

وبمهارة ورشاقة مثيرتين للإعجاب ، وثب الشاب يحتل صهوة جواده ، وجذب معرفة الجواد ، الذى رفع قائمتيه الأماميتين ، وأطلق صهيلًا حماسيًّا قويًّا ، والتمعت عيناه فى جَذَل ، قبل أن يضرب الأرض بقوائمه ، وينطلق براكبه ، دائرًا حول الخيام الثلاث ، فى حين أمال الشاب جسده على نحو مدهش ، ليلتقط قوسه وجَعْبة سهامه ، ثم اعتدل وهو يضرب بطن جواده بكعبيه فى رفق وحزم ، وانطلق الجواد الأبيض الشاهق يختفى براكبه فى الأفق القريب ، (ومهاب) يهتف فى تكاسل :

ـــ لا تحضر أرنبًا .. لقد سئمت الأرانب على الإفطار .

ثم تنهّد فى عمق ، واستطرد :

ـــ كم هو رائع هذا الشاب !

ابتسم الشيخ ابتسامة حانية ، وهو يتطلّع إلى الأفق ، حيث اختفى الشاب وجواده ، وقال فى لهجة تحمل شيئًا من الحزن :

ـــ إنه يذكّرنى بوالده (رحمه الله) .

تنهّد (مُهاب) مرّة أخرى ، وقال :

ـــ كان (رحمه الله) أعظم فرسان (الأندلس) .

رَانَ عليهما الصمت لحظات ، اتجه خلالها (مهاب) إلى خيمته ، وعاد حاملًا سيفه وجرابه ، وتمنطق بهما ، وهو يقطع حبل الصمت ، سائلًا الشيخ :

ــ أظن أن الشاب قد بلغ المدى المطلوب يا سيدى الوزير ، فلقد صارت ذراعه قوية ، تحمل السيف ، وتضرب به فى صلابة وحزم ، ويندر أن تخطئ سهامه هدفها ، كما أنه يمتلك قلبًا باسلًا ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ونفسًا شجاعة ، لا تهاب أشدّ المخاطر ، ولا أعظم الشدائد .. ألم يَحِن وقت انطلاقته بعد ؟

شرد الشيخ ببصره فى الأفق ، وقال :

ــ إننى أنتظر إشارة البدء يا ولدى ، فلقد أعددت (فارس) طِيلَة الأعوام العشرين الماضية ، للذَّود عن (الأندلس) ، قبل أن تغرب شمس العرب فيها ، ولقد وعدت والده (رحمه الله) على أن أصنع منه أعظم فرسان (الأندلس) ، وأن أجعله سيف الله (سبحانه وتعالى) فيها .

ثم التفت إلى (مهاب) ، مستطردًا فى حزم :

ــ ولكن حذَارِ أن تخاطبنى أمامه بلقب (الوزير) ، فهو لا يعلم بعد حقيقة منشئِه ، ولا نبل مَحتِده ، والأفضل أن يبقى كذلك ، حتى تحين اللحظة المناسبة .

ابتسم (مهاب) ، وقال :

ــ ومتى تحين اللحظة المناسبة ؟

رفع الشيخ عينيه إلى قرص الشمس ، الذى يتصاعد فى الأفق ، وأجاب فى حزم :

ــ عندما تشرق شمسنا على (الأندلس) مرَّة أخرى ، ويُصبح مؤهَّلًا لاستعادة عرش أبيه ، وملك (الأندلس) .

أشار (مهاب) إلى الأفق ، وابتسم قائلًا :

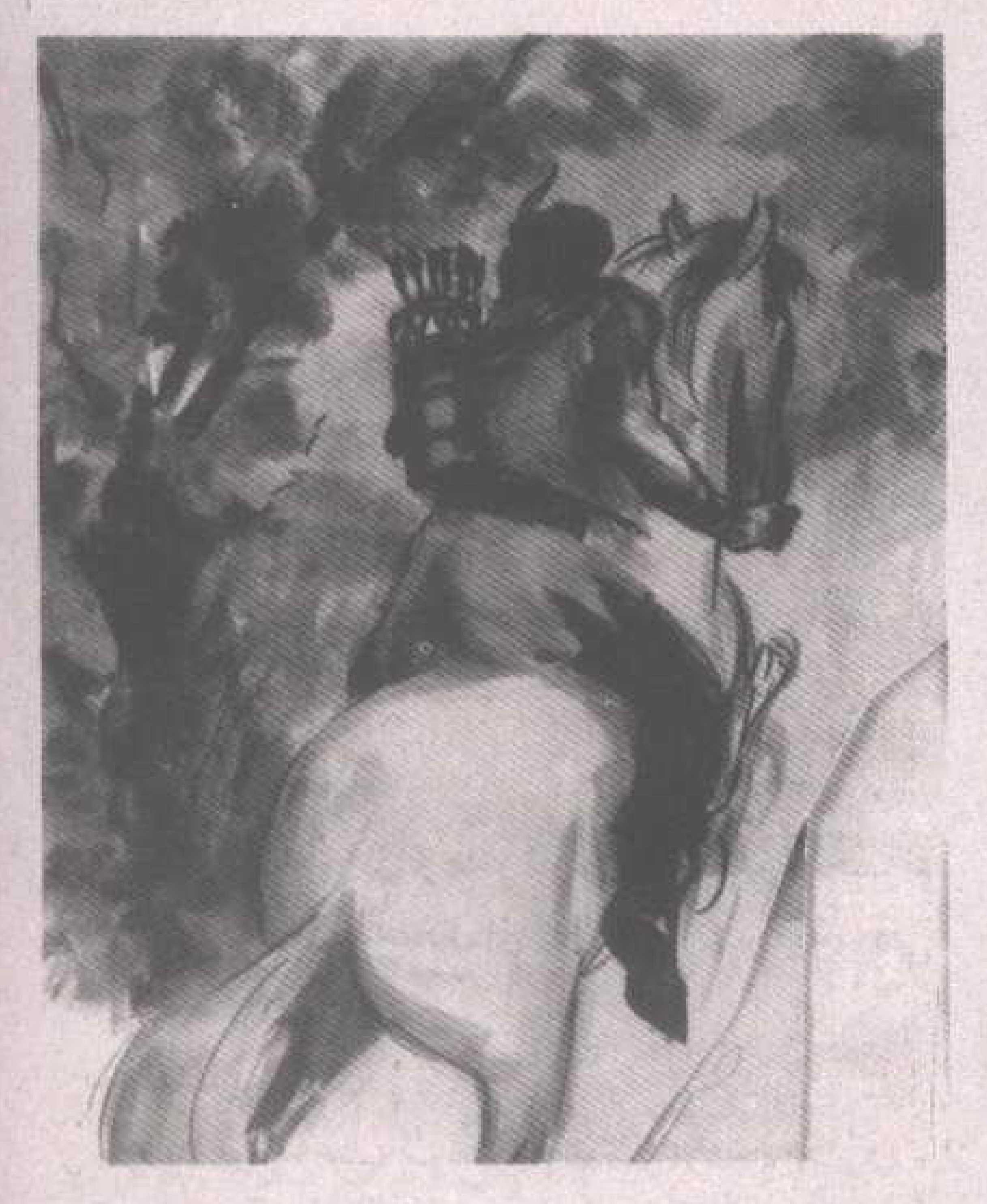
ــ ها هو ذا .. لقد عاد .

التفت الشيخ إلى حيث يشير (مهاب) ، وابتسم فى ارتياح ، وهو يتابع (فارس) ، الذى يقترب على صهوة جواده ، وابتسامة القوة والثقة تتألَّق على وجهه الوسيم ، حتى بلغ موقع الشيخ و(مهاب) ، فألقى غزالًا إلى (مهاب) ، وهو يقول :

ــ خُذْ أيها الشَرِه .. لقد أبدلت بِوَجْبَة الأرانب غزالًا صغيرًا هذا الصباح .

ابتسم (مهاب) ، وهو يحمل الغزال إلى مِنضَدَةِ الشّواء ، قائلًا :

ــ كم سهمًا استخدمت لصيده ؟



استدارت العيون كلها إلى حيث يشير ، وتعلّقت الأبصار بجواد أسود حالك السواد ، ينطلق متّجهًا إلى حيث الخيام ..

أجابه (فارس) ، وهو يهبط عن الجواد :

ـــ واحدًا .

اتسعت ابتسامة (مهاب) ، وهو يقول :

ـــ كنت أتوقّع هذا .

التقط (فارس) سيفه ، ولوّح به ، هاتفًا :

ـــ والآن ما رأيك فى مبارزة قصيرة ، حتى تفوح رائحة الشِّواء .

أطلق (مهاب) ضحكة قصيرة ، وقال :

ـــ لا بأس .

واستلّ سيفه بدوَرْه ..

وتقارعت السيوف ..

وتردّد الصّليل فى الوادى ، والفارسان يتبارزان فى قوة وعُنفوان ، والشيخ يتابع المبارزة فى اهتمام بالغ ، حتى توقّف (مهاب) فجأة عن المبارزة ، وهتف مشيرًا إلى الأفق :

ـــ الفهد ..

استدارت العيون كلها إلى حيث يشير ، وتعلّقت الأبصار بجواد أسود حالك السواد ، ينطلق متّجهًا إلى حيث الخيام الثلاث ، وعلى متنه زنجى مفتول العضلات ، بارز الصدر ،

كثيف الشعر ، يرتدى على صدره العارى صِدارِه المُزَرْكَش الأسْوَد ، الَّذِى يكاد يستحيل تمييزه عن جسده ، أو جواده ، مما جعل ثلاثتهم يبدون ككتلة من اللون الأسود ، دبَّ فيها النشاط ..

واقترب الزِّنجىُّ حتى بلغ موقع الثلاثة ، ثم قفز عن جواده ، وانحنى أمام (فارس) فى احترام بالغ ، قبل أن ينهض متجهًا نحو الشيخ ، ولكن (فارس) أمسك كتفه فى قوة ، وهو يستوقفه قائلًا :

— مهلًا يا (فهد) .. لماذا تنحنى أمامى دوْمًا ؟

لم يجب (فهد) ..

بل لم تنفرج شفتاه ..

لقد بقِىَ يتطلَّع إلى وجه (فارس) فى توقير واحترام وصمت ، كأنَّما قد استحال إلى تمثال من الآبنوس(*) ، حتى قال الشيخ فى حزم :

(*) الآبنوس : خشب أسود اللون ، لعدد من الأشجار الاستوائية ، وهو خشب صلد ، ممتاز الصقل ، يستعمل فى صناعة الأثاثات الفاخرة ، وبعض التماثيل الغالية الثمن ، وأصابع البيانو .

— ماذا دهاك يا (فارس) ؟.. أنسيت أن (فهد) أبكم أصمّ ، لا يمكنه أن يسمعك أو يحدِّثك ؟

تطلَّع (فارس) إلى وجه (فهد) الجامد طويلًا ، قبل أن يغمغم :

— حقًّا ؟!

جذب الشيخ (فهد) إلى خيمته ، وهو يقول فى صرامة :

— دَعْك من هذا يا (فارس) ، وعُدْ إلى مبارزتك مع (مهاب) .

راقبهما (فارس) وهما يدلفان إلى خيمة الشيخ ، فى حين هتف به (مهاب) :

— هل تنسحب ؟

التفت إليه قائلًا فى حزم :

— مطلقًا .

وعاد سيفاهما يتقارعان ، إلَّا أن (فارس) بدا شديد الشُّرود هذه المرَّة ، حتى أن (مهاب) سأله :

— ماذا أصابك ؟.. ضرباتك تفتقر إلى القوة هذه المرَّة .

جمع (فارس) كل قوته وضيقه فى ضربة قوية ، هوَى بها سيفه على سيف (مهاب) ، وهو يقول فى حِدَّة :

— هل تظن هذا ؟

انتزعت الضربة سيف (مهاب) من قبضته ، وأطارته إلى خيمة الشيخ ، حيث استقرَّ أمامها ، فأطلق (مهاب) ضحكة خافتة ، وقال فى خجل :

— لم أقصد هذا تمامًا .

ابتسم (فارس) ابتسامة باهتة ، وهو يتجه إلى حيث سقط سيف (مهاب) ، مغمغمًا :

— لم أكن أقصد انتزاع سيفك .. سأحضره لك بنفسى .

بلغ موضع السيف ، وانحنى ليلتقطه ، ولكنه تجمَّد فى موضعه ، عندما تناهى إلى مسامعه حديث خافت ، يحمل صوتى رجلين ..

صوت الشيخ وصوت ذلك الأبكم ..

(فهد) ..

* * *

اعتدل (فارس) على نحو حادّ ، وراودَته فكرة أن يقتحم خيمة الشيخ ، ويفاجئ (فهد) وهو يتحدَّث ، وتساءل فى غضب عن سرِّ كل هذا الغموض المحيط به ، منذ نشأته الأولى ..

منذ عكف الشيخ على تربيته وتدريبه على كل وسائل القتال ، وهو يجهل كل شىء عن نفسه ، إلا ما يخبره به الشيخ ، وما يفلت به لسان (مهاب) ، مدرِّبه وصديقه الوحيد ..

لماذا يتمُّ إعداده على هذا النحو الفائق ؟..

أيّة مهمَّة سامية تنتظره ؟..

بل أى قدر ؟!..

قطع صوت (مهاب) أفكاره ، وهو يهتف ضاحكًا :

— هل السيف ثقيل إلى هذا الحدّ ؟

برز الشيخ من خيمته فى هذه اللحظة ، وبدت عيناه متألقتين ، وهو يقول :

— كفَى يا (مهاب) .. انتهى وقت اللعب .

تابع (فارس) ببصره (فهد) ، الذى تسلَّل من خلف ظهر الشيخ إلى جواده الأسود ، وقفز على ظهره ، وانطلق به مبتعدًا ، فى حين أدار الشيخ عينيه إلى (فارس) ، وقال :

— اقترب يا ولدى .

اقترب منه (فارس) ، وعشرات التساؤلات تملأ عقله ونفسه ، فأمسك الشيخ كفَّه ، وأجلسه أمامه ، وهو يجلس بدوره على الصخرة المصقولة ، ثم وضع يده على كتفه ، وقال :

— اسمعنى جيدًا يا (فارس) .. منذ ما يقرب من ثمانية قرون ، وبالتحديد فى الخامس من رجب ، عام (٩٢ هـ) ، الموافق شهر أبريل من عام (٧١١ م) ، وقف الفارس العربى (طارق بن زياد) ، على شاطئ (الأندلس) ، يهتف بجنوده : « البحر من ورائكم ، والعدوُّ من أمامكم ، فأين المفرّ ؟!.. » .. وكانت صيحته هذه هى شرارة فتح (الأندلس) ، التى شهدت فى ثمانية قرون عربية نهضة رائعة . ثقافية ، وفنية ، وأدبية ، وحضارية ، كما شهدت المحاولات المستميتة من ملوك وأمراء وسلاطين (أوروبا) ، لاستعادة شبه الجزيرة الأيبيرية ، التى حملت من قبل اسم قبائل (الفندال Vandals) ، أو (الأندلس) ، الذى تحمله الآن .. ومنذ عهد الملك (لذريق)[*] حمل العرب لواء (الأندلس) ، إلى أن نشبت بينهم الصراعات والخلافات الداخلية ، وهنا انقضَّ عليهم ملوك (أوربا) ، وعلى رأسهم (فرنادو الثالث) ، ملك (قشتالة) ، ونجحوا فى استعادة معظم (الأندلس) ، بما فى

(*) (لذريق) أو (ردريق) : آخر ملوك القوط الغربيين فى (إسبانيا) ، هزمه (طارق بن زياد) عام ٧١١ م ، قرب مدينة (صيدونيا) ، فى أوائل الفتح الأندلسى .

ذلك عاصمتها (قرطبة) ، ولم تبقَ لنا سوى مملكة (غرناطة) ، التى نطلق عليها اسم (الأندلس الصغرى) ، والتى يسعى (فرنادو الخامس) ملك (أرجون) ، و (إيزابيلا) ملكة (قشتالة) و (ليون) لتحطيمها وهزيمتها ، وطرد العرب منها[*] .

نفد صبر (فارس) فى سرعة ، فقال :

— لقد ألقيت هذا على مسامعى عشرات المرّات يا عمّاه ، فما الجديد هذه المرّة ؟

تنهدَّ الشيخ فى عمق ، وضغط كتف (فارس) فى رفق ، وهو يقول :

— (فرنادو) و (إيزابيلا) يخطّطان لتحطيم البقية الباقية من (الأندلس) يا ولدى ، ولقد أرسلا إلى (غرناطة) أقوى جواسيسهم فى (قرطبة) ، ويُدعى (رودريك) ، وهو فارس قوى صلب ، تقتصر مهمّته على لقاء تاجر خائن فى (غرناطة) ، والحصول منه على خريطة تبيّن نقاط ضعف الحراسة حول المملكة ؛ ليسهل اقتحامها .

عقد (فارس) حاجبيه ، وقال فى قلق :

(*) حقائق تاريخية ..

— ولكن هذا قد يعنى نهاية الحكم العربى فى (الأندلس) يا عمّاه ، ومن الضرورى أن نبذل قُصارى جهدنا لمنع جاسوس (قرطبة) هذا ، من العودة إلى أسياده بخريطة دفاعاتنا .

ابتسم الشيخ ، وهو ينهض ، قائلًا :

— تعالَ يا ولدى .

قاده إلى خيمته ، و (مهاب) يتابعهما فى صمت ، وقد سرَت فى جسده رعشة هيبة وترقُّب ، فى حين انحنى الشيخ يفتح صندوقًا مختومًا ، والتقط من داخله حُلّة فارس بيضاء ، وخوذة من الفضة ، وسيفًا له مقبض، ونطاقًا وجرابًا من اللون الأخضر ، وناول كل هذا (فارس) ، وهو يقول فى حزم :

— لقد حانت اللحظة يا ولدى .. اللحظة التى أنتظرها منذ عشرين عامًا .. هذه مقتنيات والدك ، وهأنذا أسلّمها إليك ، لتتمّ مهمّته ، ولتبدأ مهمّتك السامية ، لإنقاذ راية (الأندلس) .

التقط (فارس) الحُلّة والسّيف والخوذة ، وهو يسأله فى شغف :

— ولكن من هو والدى يا عمّاه ؟.. ما اسمه ؟.. من كان ؟.. وأى لقب أحمله أنا بعد اسم (فارس) ؟..

ابتسم الشيخ ابتسامة خافتة ، وقال :

— يكفيك أنك (فارس) يا ولدى .

ثم وضع يده على كتفه ، مستطردًا فى زهوٍ وحماس :

— فارس (الأندلس) ..

وكانت هذه لحظة الميلاد ..

* * *



٢ ـ الجاسوس ..

أشرقت الشمس فى مشهد بديع ، وألقت أشعتها المتألقة الدافئة ، من خلف جبال (سيرانيڤادا) ، كخيوط من ذهب ، انهمرت على مدينة (غرناطة) ، عاصمة (الأندلس الصغرى) ، وتألقت على قصر الحمراء ، الحصن العربى الشامخ ، وانعكست على وجه فارس متين البنيان ، واضح القوة ، يرتدى حُلَّة مزركشة ، مزدانة بخيوط من الذهب والفضة ، التمعت تحت ضوء الشمس ، وأبرزت شعره الأسود اللامع ، ولحيته القصيرة ، وشاربه الفاحم ، الذى يتناقض كثيرًا مع عينيه الزرقاوَيْن ، وإن اتفقت ألوانه مع لون جواده الأسود ، ذِى البقع البيضاء ، التى تحيِّر الناظر والباحث عن أصل الجواد ، الذى انسدل على ظهره سرج ثمين ، وامتدَّ من فكَّيه عِنان مُوَشًّى بخيوط القصب ، ليستقرّ فى قبضة راكبه ، ويتأرجح مع حركته الهادئة المدروسة ، وعينا الفارس الزرقاوان تدرسان المكان فى حُنكة واهتمام ، حتى وقع بصره على باب من خشب الصندل ، تشفّ نقوشه البارزة عن ثراء

صاحبه ، ورفيع منزلته ، فأوقف الفارس جواده ، وهبط عنه ، ودقَّ الباب فى حزم ، وانتظر لحظات ، حتى برز أمامه رجل قصير ، سأله فى اهتمام :

ـ ماذا ينشد السيِّد ؟

أجابه الفارس :

ـ أتيت من خلف الجبال ، لأقابل سلطان (غرناطة) المرتقب .

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى القصير ، وانحنى على نحو واضح النفاق ، وهو يلوِّح بكفِّه ، قائلًا :

ـ مرحبًا بك فى البلاط المؤقَّت للسلطان المرتقب أيها الفارس .. تفضَّل ، على الرُّحب والسَّعة .

عَبَرَ الفارس الباب فى خُيَلَاء ، وناول درعه للقصير ، الذى احتقن وجهه فى شده ، وهو يبذل أقصى جهده ؛ لحمل الدرع الثقيل ، فى حين احتفظ الفارس بسيفه ونطاقه ، وهو يدير عينيه فى القاعة ، قائلًا :

ـ أين السلطان ؟

وضع القصير الدرع جانبًا ، وأشار إلى قاعة أخرى ، قائلًا :

ـــ هنا أيها الفارس .. تقدّم .

دلف الفارس إلى القاعة الثانية ، ولم يستطع منع شفتيه من الانقلاب امتعاضًا ، عندما وقع بصره على رجل بالغ البدانة ، ترك جسده الضخم يسترخي ، فوق أريكة هائلة ، وهو يلتهم قطع اللحم فى شراهة ، وحوله عدد من جواريه ، يقدّمن له الشراب والطعام ، ولم يكد البدين يرى الفارس ، حتى امتلأ وجهه المكتظّ بابتسامة واسعة ، وهو يهتف :

ـــ واعزيزى (رودريك) .. إننى أنتظرك منذ يومين .. مرحبًا بك ..

اتجه إليه (رودريك) ، جاسوس (قرطبة) ، وجلس على أريكة مجاورة ، وهو يقول فى استعلاء :

ـــ أين الخريطة ؟

ابتسم البدين فى خبث ، ولوّح بأصابعه ، قائلًا :

ـــ ليس هكذا يا عزيزى (رودريك) .. فلنتناول شيئًا من الشراب أوّلًا .

عقد (رودريك) حاجبيه ، وقال فى صرامة :

ـــ الخريطة أوّلًا .

أطلق البدين ضحكة قصيرة ، وقال :

ـــ حسنًا يا عزيزى (رودريك) .. حسنًا .. لا داعِى للغضب .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى خبث :

ـــ ولكننى أحب استرجاع بنود اتفاقنا فى البداية .

رمقه (رودريك) بنظرة احتقار ، وهو يقول :

ـــ لا تقلق يا رجل .. لقد وعدك السادة بأن ينصّبوك سلطانًا على (غرناطة) ، عندما يتمُّ لهم احتلالها ، والملوك لا يحنثون بوعُودهم قطُّ .

ابتسم البدين فى دهاء ، وقال :

ـــ ربّما ، ولكننى ـــ كما تعلم ـــ تاجر قديم ، وليس من السهل على تاجر مثلى ، أن يَرْكَنَ إلى الوعود الشفهية .

قال (رودريك) فى حِدّة :

ـــ حسنًا .. ماذا تطلب فى اختصار ؟

تألّقت عينا البدين فى شراهة ، وهو يقول :

ـــ عقدًا مكتوبًا .

ابتسم (رودريك) فى سُخرية ، وقال :

ـــ أهذا ما يرضيك حقًّا ؟

هتف البدين فى لهفة :

— بالتأكيد .

صمت (رودريك) لحظات ، ثم أشار إلى الجوارى ، قائلًا :

— أتحبُّ أن يتمّ هذا على الملإ ؟

ابتسم البدين وقال :

— كلّا بالتأكيد .

وبإشارة من يده نهضت جواريه ، وغادرن القاعة فى سرعة ، وبقِىَ هو مع (رودريك) والقصير ، وأشار (رودريك) إلى القصير ، وهو يقول فى استهتار :

— وهل سيبقَى هذا ؟

أومأ البدين برأسه إيجابًا ، وقال :

— نعم .. (سينوت) هو ذراعى اليمنى ، وكاتم أسرارى .

ابتسم (رودريك) فى سُخرية ، وقال :

— فليكن .. إلىّ برقٍّ وقلم ، وسأمنحك التعهد المكتوب ، الذى تنشده .

وفى أعماقه ، ودون أدنى صوت ، أضاف (رودريك) :

— أيها الغبىّ الأحمق ..

* * *

ترجّل (فهد) الزّنجىّ عن جواده الأسود ، على بعد أمتار من دار البدين ، وأدار عينيه ووجهه الجامد فيما حوله ، ثم اتجه فى هدوء إلى حيث يقف جواد (رودريك) وربّت على عنق الجواد فى رفق ، وداعب معرفته فى حنان ، دفع الجواد إلى أن يمسح عنقه بصدر (فهد) القوى ، الذى نقل راحته من عنق الجواد إلى صدره القوى ، وبطنه ، وعجزه ، ثم تحسّس قائمته الخلفية اليُسرى ، ورفعها فى رفق ، دون أن يعترض الجواد ، وبخفّة وسرعة ، التقط من حزامه شريحة معدنية صغيرة ، ثبّتها أسفل حافر الجواد بقبضته ، ثم ترك الجواد يخفض قائمته ، وربّت على بطنه وعنقه مرّة أخرى ، ثم تركه واتجه إلى حيث يقف جواده ، وقفز يعتلى صهوته ، وأمال عِنانه ، وانطلق به مبتعدًا ..

* * *

ذيّل (رودريك) العقد بتوقيعه ، وناوله إلى البدين ، وهو يقول فى لهجة ، لم يحاول إخفاء النّبرة الساخرة فيها :

— ها هو ذا العقد المكتوب .

اختطف البدين العقد فى لهفة ، وطالعه فى شبق ، ثم طواه فى انفعال ، وهو يملأ وجهه بابتسامة ضخمة ، هاتفًا :

— سنتناول الشراب ، احتفالًا بتوقيع هذا الـ .....

قاطعه (رودريك) فى صرامة :

— الخريطة .

لوّح البدين بكفّيه ، هاتفًا :

— الخريطة موجودة ، ولن تذهب بعيدًا ، فقط سنحتفل ، و .....

قاطعه فى حزمه :

— الخريطة أوّلًا .

بدا الخوف لحظة فى عينى البدين ، إلا أنه لم يلبث أن ازدرد لعابه ، وقال :

— حسنًا يا عزيزى (رودريك) .. حسنًا .. ستحصل عليها على الفور .

ثم فرقع إصبعه ، وهو يستطرد فى توتر :

(سينوت) .

ابتسم القصير ابتسامة مُفعَمَة بالخبث والغموض ، وانحنى أمام مولاه ، ثم اتجه نحو جزء من الحائط ، يستحيل تفرقته عن باقى أجزاء الحائط ، وضغط نقوشه فى خِفّة ، فانزاح جانبًا ، كاشفًا فجوة صغيرة ، التقط القصير من داخلها الخريطة ،

ودار على عَقِبَيْه فى حركة مسرحية ، يناولها لـ (رودريك) ، الذى التقطها فى اهتمام واضح ، وفردها أمام عينيه ، وبدا شديد الاهتمام ، وهو يطالعها ، فى حين راح البدين يقول فى زهو :

— إنها أدقّ خريطة موجودة للمواقع الدفاعية العربية ، وبواسطتها يمكنكم التسلُّل بجيوشكم إلى قلب (غرناطة) ، واحتلالها ، قبل أن يفتح العرب أعينهم فى الصباح .

طوَى (رودريك) الخريطة ، وهو يقول فى صرامة :

— أعلم هذا .

ابتسم البدين وقال :

— رائع .. والآن سنحتفل بـ .....

نهض (رودريك) ، قائلًا فى حزم :

— لا وقت يا رجل .

هتف البدين :

— إلى أين ؟.. إننا لم نتناول الشراب بعد ، ولم .....

قاطعه فى حزم صارم :

— فيما بعد .. سنحتفل قريبًا بسقوط (غرناطة) .

والتقط درعه ، وهو يستطرد فى خفوت وسُخرية :

— وسقوط رأسك أيها الغبى .
وفى أعماقه انطلقت ضحكة ساخرة ..

* * *

« ها هو ذا .. » .

نطق (مهاب) بالكلمة ، وهو يشير إلى دار البدين ، فتعلّقت عينا (فارس) بالباب المزخرف ، وغمغم :

— المهمّ أن نكون قد وصلنا فى الوقت المناسب .

جذب معرفة جواده الأبيض العربى الأصيل ، وهو يستطرد :

— هيّا يا (رفيق) .

أطاعه الجواد فى مرونة ، ودفع قوائمه نحو دار البدين ، حيث توقّف شامخ الرأس ، مفرود الصدر ، وقفز (فارس) عن ظهره ، وهو يقول لـ (مهاب) :

— انتظر هنا ، وسأعلم أنا ما إذا كنا قد وصلنا فى الوقت المناسب أم لا .

ودقّ باب البدين فى حزم ..

كان (فارس) محطّ الأنظار ، منذ بلغ (غرناطة) مع (مهاب) ، فقد بدا شديد الوسامة والقوة والثقة ، ولفتت

حُلّته البيضاء وخُوذته الفضيّة انتباه الجميع ، وبدا نطاقه وجراب سيفه الأخضران أشبه برمز للأمل فى القلوب ، خاصة مع ذلك الجواد الأبيض الشاهق ، الذى يعبُر طرقات العاصمة فى ضربات قوية واثقة ..

وأكثر ما جذب الأنظار إلى (فارس) هو أنه يمتطى جواده دون سرج أو لجام ..

ولقد ذكّرهم هذا بأحد أمراء (قرطبة) ..

بل بأعظم أمرائها ..

هذا هو نفس الانطباع ، الذى تفجّر فى رأس (سينوت) القصير ، عندما وقع بصره على (فارس) بزيّه الأبيض وخوذته الفضيّة ، ونطاقه الأخضر ..

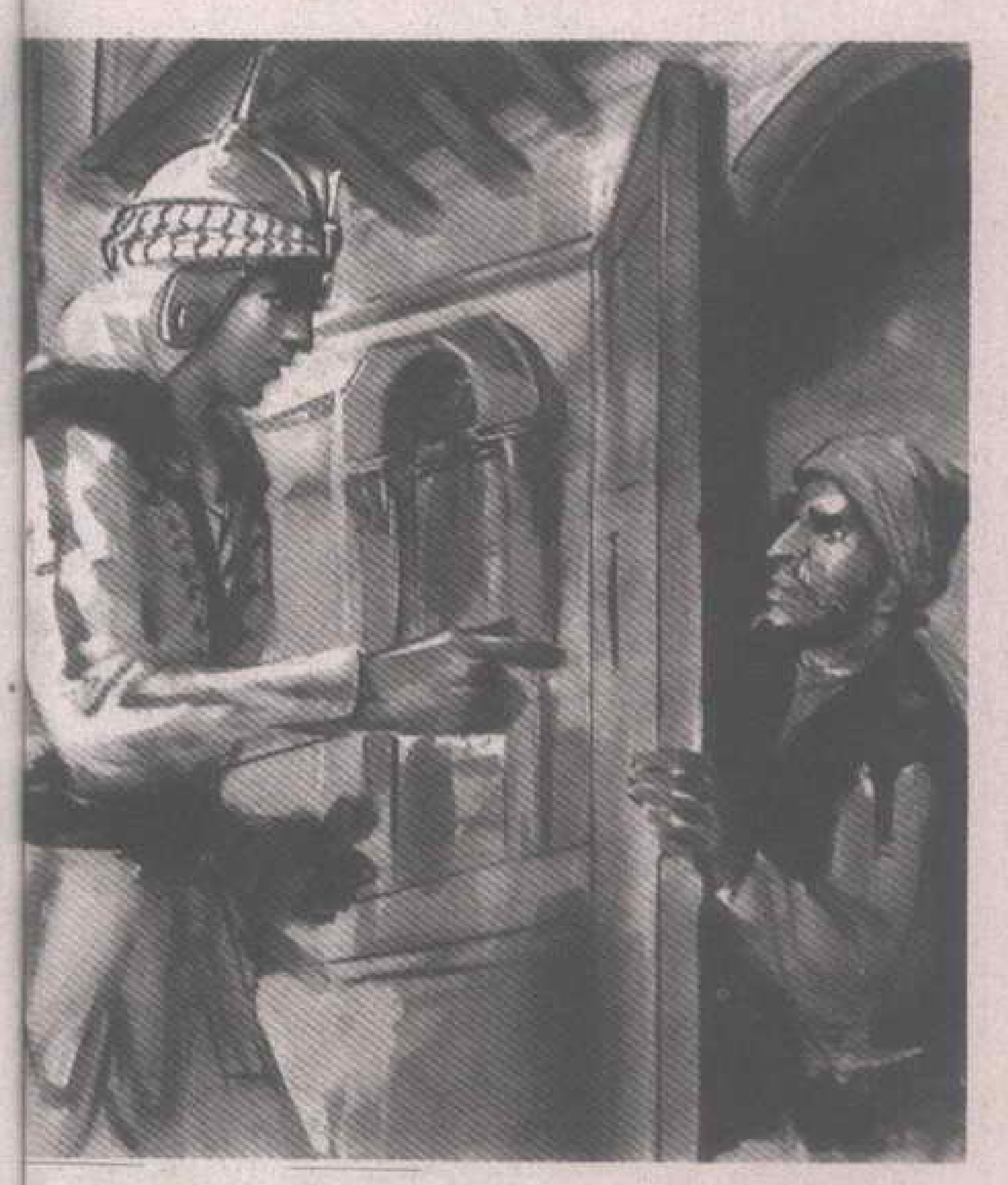
لقد تذكّر فارسًا قديمًا ، وأميرًا صنديدًا ، كان يرتدى الزىّ نفسه فيما مضى ..

وكان يشبه (فارس) كثيرًا ..

كثيرًا جدًا ..

وعلى الرغم منه ، ارتجف (سينوت) وصوته ، وهو يقول :

— ماذا تريد أيها الفارس ؟



وعلى الرغم منه ، ارتجف (سينوت) وصوته ، وهو يقول :

ــ ماذا تريد أيها الفارس ؟..

قال (فارس) فى حزم :

ــ أريد مقابلة سيِّدك .

سأله (سينوت) فى قلق :

ــ فى أى شأن ؟

أجابه على نحو مباشر صريح :

ــ بشأن جاسوس من (قرطبة) .. يُدعى (رودريك) .

انتفض جسد (سينوت) ، وحدَّق لحظة فى وجه (فارس) ، ثم ابتسم ابتسامة غامضة ، وهو يفسح فى الطريق ، قائلًا :

ــ تفضّل على الرُّحب والسَّعة .

دلف (فارس) إلى الداخل ، فى حين بقِىَ (مهاب) أمام الباب ، ولم يكد (سينوت) يغلق الباب خلف (فارس) ، حتى تحسَّس (مهاب) سيفه ، وغمغم فى قلق :

ــ فليكن .. لابُدَّ له من أن يخوض التجربة وحده .. هكذا أشار الوزير ..

ثم تنهَّدَ فى عمق ، وجلس ينتظر ..

أمَّا (فارس) ، فقد قاده (سينوت) إلى القاعة الخارجية ، وانحنى أمامه فى تملُّق ، قائلًا :

— فلينتظرنى سيّدى الفارس لحظة .

ثم أسرع إلى القاعة الأخرى ، حيث يجلس البدين ، ومال على أذنه ، هامسًا فى انفعال :

— هناك فارس آخر يطلب مقابلتك يامولاى .

أشار البدين إلى جواريه بالانصراف ، ثم سأل (سينوت) فى قلق :

— أى فارس هذا ؟

أجابه (سينوت) بنفس الانفعال :

— إنه فارس أبيض يا مولاى ، يرتدى نفس زىّ ذلك الأمير فى (قرطبة) .

ارتجف البدين فى قوة ، وحدّق فى وجه (سينوت) فى رُعب ، وهتف فى خُفوت :

— هل .. هل بُعِثَ حيًّا ؟!

هزّ (سينوت) رأسه نفيًا ، وقال :

— لا يا مولاى .. الأرجح أن هذا ابنه ، الذى اختفى رضيعًا ، مع الوزير ، و.....

قاطعه البدين فى توتُّر :

— وماذا نفعل به ؟

أجابه فى خُبث ودَهاء :

— دَعنا نسمح له بمقابلتك أوّلًا يا مولاى .

هتف البدين :

— ثم ماذا ؟

ابتسم (سينوت) ابتسامة ماكرة ، وقال :

— ثم يُنهى رجالنا الأمر يا مولاى .

حدّق البدين فى وجهه لحظة ، ثم ابتسم قائلًا :

— فليكن .. دَعْهُ يدخل .

لم تمضِ لحظات حتى دلف (فارس) إلى الحجرة ، شامخ الرأس ، معتدل القوام ، ولم يملك البدين إلا أن يرتجف ، وهو يسأله :

— ما الذى تنشده أيها الفارس ؟

وضع (فارس) يده على صدره ، وقال فى حزم :

— اسمى (فارس) ، وأنا هنا لتحذيرك من التورُّط فى خيانة مفزعة ، لا تليق بعربى ، فلقد بلغنى أنك تنتظر جاسوسًا من (قرطبة) ، وأنك تنوى منحه خريطة للدفاعات العربية .

انتفض البدين فى قوة ، وجرى الرُّعب فى عروقه مجرَى الدم ، وحدّق فى وجه (فارس) فى ذُهُول ، فقد كان لأسلوب (فارس) المباشر المفاجئ أثره العنيف فى تحطيم مقاومة البدين

ومعنوياته ، حتى أنه راح يترجرج فى شدة ، وهو يقول فى انهيار :

— كيف ؟!.. كيف علمت كل هذا ؟.. من أنت ؟

تجاهل (فارس) هذه الأسئلة ، وهو يقول فى حزم :

— أخبرنى أوّلًا .. أوصل الجاسوس القرطبىّ ، ومنحته أنت الخريطة ، أم أنه لم يصل بعد ؟

تردّد البدين لحظات ، ثم قال ، وهو يختلس النظر إلى (سينوت) ، فى القاعة الأخرى :

— هذا يتوقّف على .....

بتر عبارته عند هذا الحدّ ، فسأله (فارس) فى صرامة :

— على ماذا ؟!

ابتسم البدين فجأة فى ارتياح ، وهو يقول :

— على هؤلاء .

وفى نفس اللحظة ، اقتحم القاعة خمسة من الفرسان الأشدّاء ، واستلّ كل منهم سيفه ، فى صليل قوى رنّان ، امتزج بصوت البدين ، وهو يشير إلى (فارس) ، ويهتف فى حدّة :

— اقتلوه ..

وكانت المواجهة ..

* * *

٣ — القتال ..

شعر (مهاب) بقلق خفىّ ، وهو يجلس على صهوة جواده ، فى انتظار عودة (فارس) ، وراح يزفر فى توتُّر ، وهو يقول لنفسه :

— تُرى ماذا سيفعل الفتى ، فى أوّل مواجهة حقيقية له ؟.. صحيح أنه قد بلغ شأنًا كبيرًا ، فى اللّعب بالسّيف ، وإطلاق النّشّاب ، إلا أن كل هذا لم يتخطَّ بعد مرحلة التدريب ، ولا أحد يعلم ما يمكن أن يفعله فى مواجهة حقيقية ، و.....

بتر عبارته بغتة ، عندما وقع بصره على أثر صغير لحوافر جواد ، أمام باب الدار ، وقد بدا أثر لشريحة معدنية صغيرة ، فى الحافر الخلفى الأيسر ، تشبه فهدًا يهمُّ بالانقضاض ، مما دفع (مهاب) إلى أن يقفز من فوق جواده ، وينحنى فاحصًا الأثر ، قبل أن يغمغم فى انفعال :

— ما من شكٍّ فى هذا .. لقد وضع (فهد) هذه العلامة ، ليرشدنا إلى جواد الجاسوس .

تابع ببصره الأثر ، الذى يمتدُّ بعيدًا ، ثم اعتدل قائلًا فى حزم :

ــ وهذا يَعْنِى أن جاسوس (قرطبة) قد حصل على مبتغاه ، ورحل .

ارتطم فى اعتداله بصدر رجل قوى ، فالتفت إليه مغمغمًا :

ــ معذرة يا رجل . لم أقصد أن ......

ولكن الرجل أطلق صرخة رهيبة ، واستلَّ مع زميل له سيْفَيْهما ، قبل أن يدرك (مهاب) ما يَعْنِيه هذا ، و.....

وهوَى عليه نصلا السيفين ..

* * *

عقد (فارس) حاجبيه فى غضب ، وهو يلتفت إلى البدين ، ويقول :

ــ لقد أتيتك مُسالمًا ، على الرغم من خيانتك لوطنك يا رجل ، فكيف تأمر رجالك بقتلى فى عُقر دراك ؟!

ابتسم البدين فى سُخرية وشماتة ، وقال :

ــ فلتقل إننى خائن بطبعى .

تقافز الغضب من وجه (فارس) ، وهو يستُل سيفه ، صائحًا :

ــ صدقت .

تراجع البدين ، وهو يصرخ برجاله مرَّة أخرى :

ــ اقتلوه .. اقتلوه .

وفى هذه المرَّة ، انقضَّ الرجال الخمسة على (فارس) ، الذى أطلق فى وجوههم صيحة رهيبة ، ثم رفع سيفه ، وانقضَّ ..

لم يكن يحمل مِجَنًّا ، يتلقَّى عليه ضربات سيوفهم ، ولكن هذا لم يقلقه كثيرًا ، فمنذ حداثته ، لم يحمل أبدًا مِجَنًّا ..

هكذا علَّمه الشيخ ..

وهكذا درَّبه (مهاب) ..

وبالنسبة إليه ، كان الرجال الخمسة أشبه بجذوع الأشجار ، التى طالما دفعها (مهاب) نحوه ، على نحو عشوائىّ ، وهى مربوطة بحبال من أعلى ، وتبرز منها النِّصال الحادة ..

وبنفس ثقة وحماس التدريبات ، انحنى (فارس) يتفادى نصل سيف ، ثم اعتدل يضرب سيفًا ثانيًا بسيفه ، ويُطيح به بعيدًا ، ثم مال جانبًا ، متفاديًا نصلًا ثالثًا ، وهوَى بسيفه على السيف الرابع ، ثم دار على عَقِبَيْه يُطيح بالسيف الخامس فى ضربة سيف قوية عنيفة ، وبعدها قفز سيفه يَمنةً ويَسْرةً ،

وأطاح بالسيفين الباقيين ، وأطلق صيحة أخرى ، ثم لوَّح بسيفه فى الهواء ، فى مهارة مخيفة ، قبل أن يعيده إلى غِمده فى قوة ، ويقول فى صرامة :

ــ لست أهلًا لنزالى .

شَحُبت وجوه الفرسان الخمسة ، الذين فقدوا سيوفهم فى لحظات ، والتصق (سينوت) بالحائط ، وقد خُيِّل إليه أن أمير (قرطبة) الراحل قد بُعث حيًّا ، وراح يقاتل خصومه فى هذا الجيل ، كما كان يقاتلهم قديمًا ، قبيل سقوط (قرطبة) ..

أما البدين ، فقد اتسعت عيناه فى رُعب ، وانقلبت سِحْنته فى فَزَع ، وهو يلوِّح بكفَّيه ، قائلًا :

ــ لا .. لا تقترب منِّى .. لا .

التفت (فارس) إلى الرجال الخمسة ، الذين تجمَّدت الدماء فى عروقهم ، وهم يتطلَّعون إلى ملامحه الصارمة ، ويستمعون إلى صوته الحازم ، وهو يقول :

ــ انصرفوا .

أسرعوا يغادرون القاعة ، كأنما أشباح الدنيا كلها تطاردهم ، وهم يتعثَّرون فى أقدام بعضهم البعض ، فى حين عاد (فارس) يواجه البدين ، وهو يقول فى نفس لهجته الصارمة المخيفة :

ــ هل أعطيت الخريطة للجاسوس ؟

لوَّح البدين بكفَّيه ، وهو يهتف فى رُعب :

ــ الرَّحمة !! لقد أجبرنى .. لم أستطع مقاومته .. لم .....

تقدَّم (فارس) نحوه فى حركة حادَّة ، وأمسك بتلابيبه ، وحدَّق فى عينيه مباشرة ، وهو يسأله :

ــ متى رحل أيها الخائن القذر ؟

صاح البدين فى ارتياع :

ــ منذ قليل ، عندما كانت الشمس فى أعلى جبال (سيرانيفادا) تمامًا .

دفعه (فارس) فى ازدراء ، وهو يقول :

ــ أيها الحقير .

سقط البدين أرضًا ، وسقطت منه الرُّقعة ، التى تحوى عقده المكتوب مع (رودريك) ، فعقد (فارس) حاجبيه ، وهو يلتقطها ، قائلًا :

ــ ما هذا ؟

ارتجف البدين فى رُعب هائل ، وحاول اختطاف الرُّقعة من يد (فارس) وهو يصرخ ملتاعًا :

ــ لا .. لا .. اتركها لى .

دفعه (فارس) جانبًا فى احتقار ، وفضَّ الرُّقعة ، وقرأ محتوياتها فى سرعة ، ثم هتف فى غضب :

ــ سلطنة (غرناطة) ؟!.. أبعت وطنك من أجل هدف تافه بعيد المنال كهـذا ؟.. أتصورتهم يمنحونك ما يقاتلون لانتزاعه منّا ؟

ثم ألقى الرُّقعة عاليًا ، واستلَّ سيفه بحركة سريعة ، وهوَى به على الرُّقعة مرَّتين ، فقسمها إلى أربعة أجزاء ، وتركها تسقط أرضًا ، وهو يعيد سيفه إلى غِمده ، مستطردًا :

ــ حقير .

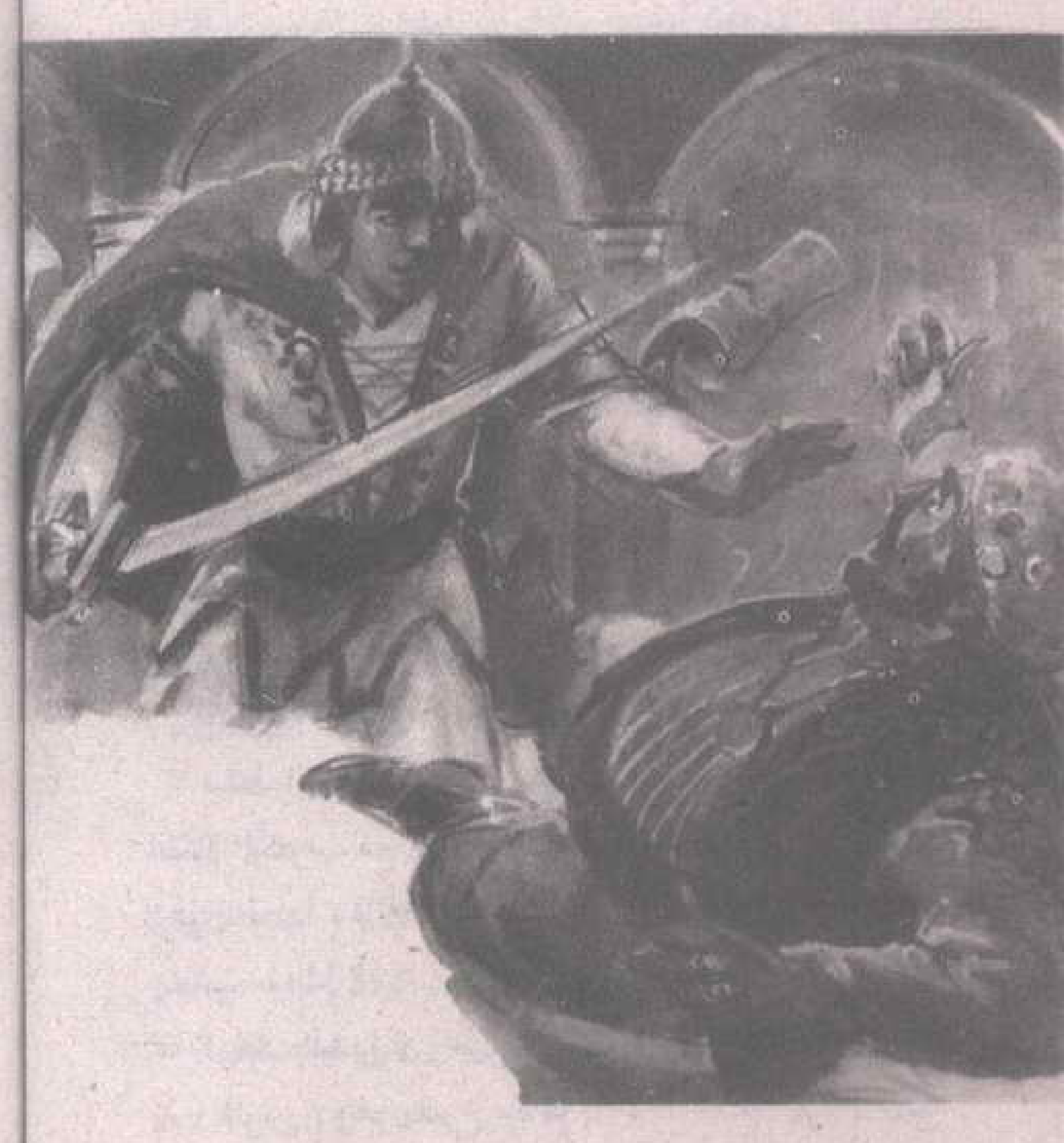
ثم دار على عَقِبَيْه ، وغادر القاعة فى شموخ ، وقد سجَّل فيها أوَّل انتصاراته العملية ..

ودون أن يريق قطرة واحدة من الدماء ..

أو من الكرامة ..

* * *

فوجئ (مهـاب) تمامًا بهجـوم الرجلين ، وبسيفيهمـا مشهورين فى وجهه ، إلا أن فارسًا قديمًا مثله ، لم يكن ليهتز أو ينهار ، أمام هجوم رجلين ، حتى ولو كان عاصفًا مباغتًا ..



سقط البدين أرضًا ، وسقطت منه الرُّقعة ، التى تحوى عقـده المكتوب مع (رودريك) ..

لقد استلّ سيفه فى سرعة مدهشة ، واستقبل على نصله نصل سيف أحد المهاجمين ، وهو يضرب صدر المهاجم الآخر بقدمه ، ثم طوّح سيفه ليطيح بسيف المقاتل الأوّل ، وأدار نصله فى سرعة ومهارة ، ليهوِىَ به على سيف الثانى ، إلا أن المقاتل الثانى تراجع فى خفّة الشباب ، وهو يقول فى سُخرية :

— أخطأت أيها الكهل .

ورفع سيفه عاليًا ، وهو يستطرد فى قوة :

— وهذا هو خطؤك الأخير .

وفجأة ، وقبل أن يهوِىَ سيفه على رأس (مهاب) ، أمسكت يد قوية معصمه من الخلف ، وسمع الرجل صوتًا صارمًا يقول :

— حقًا ؟!

وبقوة لم يعهدها الرجل من قبل ، انتزع منه (فارس) سيفه ، وألقاه بعيداً ، ثم دفع الرجل ، قائلًا فى حزم :

— هيًا .. اذهب .

نهض الرجلان ، وأسرعا يبتعدان فى خوف ، فى حين هتف (مهاب) :

— يا إلهى !.. لقد وصلت فى الوقت المناسب .

قال (فارس) فى ضيق :

— ربما ينطبق هذا عليك يا صديقى ، أما بالنسبة لجاسوس (قرطبة) ، فقد وصلنا متأخرين .. لقد حصل على الخريطة وانصرف .

ابتسم (مهاب) ، وقال وهو يعيد سيفه إلى غِمده :

— اطمئن .. إنه لم يذهب بعيدًا .

سأله (فارس) فى دهشة :

— كيف عرفت هذا ؟

أشار (مهاب) إلى آثار حوافر جواد (رودريك) ، وهو يقول :

— لقد ترك لنا (فهد) أثرًا نتبعه ، فى حوافر جواد الجاسوس ، والأثر أمام الباب يشير إلى أن (رودريك) قد انصرف منذ دقائق قليلة .

عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يتطلّع إلى الأثر الواضح ، ثم رفع عينيه إلى (مهاب) ، وقال فى ضيق :

— وكيف بلغ (فهد) هذا المكان قبلنا ؟.. وما الذى يفعله الآن ؟

ابتسم (مهاب) ابتسامة غامضة ، وقال :

ـ لا تقلق نفسك بشأن (فهد) .. إنك ستجده دائمًا أينما وحيثما ينبغي لك أن تجده ، وكلما احتجت إلى وجوده .

هتف في حِدَّة :

ـ ولكن من هو بالضبط ؟

قفز (مهاب) على صهوة جواده ، وهو يقول :

ـ لا تحاول التفكير في هذا .. هيَّا بنا .

وثب (فارس) على صهوة جواده بدَوْرِه ، وجذب معرفته البيضاء الناعمة ، و (مهاب) يسأله :

ـ هل أخبرك التاجر بما تريد ، دون مقاومة ؟

أجابه (فارس) ، وهو يراقب آثار حوافر جواد (رودريك) في اهتمام :

ـ لا .. لقد أمر خمسة من رجاله بقتلي .

سأله (مهاب) في دهشة :

ـ وماذا فعلت ؟

هزَّ (فارس) كتفيه في لامبالاة ، وأجاب :

ـ لقد جرَّدتهم من سيوفهم ، وأمرتهم بالرحيل .

اتسعت عينا (مهاب) ، وهتف :

ـ أمرتهم بالرَّحيل ؟!.. أتعْني أنك قد هزمت خمسة من الفرسان ، دون أن تقتل أحدهم ؟!

هزَّ (فارس) كتفيه مرَّة أخرى ، وقال :

ـ وماذا في ذلك ؟.. أنت تعلم أنني أكره إراقة الدماء .

أطلق (مهاب) ضحكة عالية ، وربَّت على كتف (فارس) ، وهو يهتف في حرارة وحماس :

ـ هكذا ؟.. بكل البساطة ؟!.. ما أروعك يا (فارس) !! رحم الله والدك .

التفت إليه (فارس) في حركة حادَّة ، وهو يقول في لهفة :

ـ والدي ؟! أخبرني يا (مهاب) .. ما الذي تعلمه عن والدي ؟

أثارت ابتسامة (مهاب) الحزينة حيْرته ، وهذا الأخير يقول في خُفوت :

ـ لا تُلْقِ هذا السؤال مرَّة أخرى يا (فارس) .. لم يَحِنْ وقت المعرفة بعد .

ثم ربَّت على كتفه مرَّة أخرى ، مستطردًا :

ـ والآن هيَّا نلحق بالجاسوس ، قبل أن يخترق الأعداء درع (الأندلس) .

اعتدل (فارس) على صهوة جواده ، وجذب معرفته ، قائلًا في حزم :

— نعم .. هيّا بنا ..

وانطلق الاثنان خلف الجاسوس ..

* * *

هرع (سينوت) إلى سيّده البدين ، وهتف به فى هَلَع :

— مولاى .. لقد انطلق الفارس الأبيض مع رفيقه ، خلف (رودريك) ، فلقد أضاف رفيق لهم — حسبما سمعت — إشارة خاصة إلى حوافر جواد القرطبى .

هتف البدين فى جَزَع :

— ماذا ؟!.. لو أنهم لحقوا بـ (رودريك) ، واستعادوا منه الخريطة ، فستكون فى هذا نهاية أحلامى، وتحطـم مستقبلى .

ثم أمسك كتف (سينوت) فى قوة ، مستطردًا فى انفعال :

— اسمع يا (سينوت) .. لابدّ من التخلّص من الفارس الأبيض وزميله ، وإنقاذ (رودريك) ، وضمان وصول الخريطة إلى (قشتالة) فى الوقت ذاته .

مال (سينوت) نحوه ، وسأله فى اهتمام :

— وبِمَ يأمر سيّدى ومولاى ؟

مال البدين نحوه بدوْره ، وقال فى توتُّر بالغ :

— اسمعنى جيّدًا يا (سينوت) .. خذ أقوى جواد لدينا ، وانطلق إلى خان (الوادى الكبير) ، حيث سيقضى (رودريك) ليلته ، وأبلغه بما حدث ، واطلب منه أن يتخذ الحذر ، وأن يفعل ما بوسعه للقضاء على خصميه .

ابتسم (سينوت) فى دهاء ، وقال :

— كما تأمر يا سيّدى .

وانطلق ؛ لتنفيذ الأمر ، حاملًا معه كل بغضه وكراهيته .. وخنجرًا مسمومًا ..

* * *



٤ ـــ المطاردة ..

ترجّل (رودريك) عن جواده ، عند خان (الـوادى الكبير) ، وربّت على عنق الجواد ، وتحسّس سرجه لحظة ، ثم التفت بحركة حادّة مباغتة إلى الطريق ، وامتلأت نـفسه بالحَنَق ، عندما بدا له الطريق خاليًا ساكنًا ، وغمغـم فى سُخط :

ـــ عجبًا !!.. أكاد أقسم بأننى قد لمحت زنجيًا على جواد أسود ، يتبعنى بعض الطريق !!.. إن وقع حوافر جواده لم يتلاش من أذنىّ بعد !!

ألقى نظرة أخرى طويلة على الطريق الساكن ، ثم دفع بوّابة الخان ، وهتف فى صرامة :

ـــ من هنا ؟

برزت من باب جانبى عجوز ضئيلة ، ارتسمت على وجهها القبيح ابتسامة مقيتة ، وهى تفرك كفّيها ، قائلة :

ـــ خادمتك (راشيل) يا سيّد الفرسان .

لوّح بكفّه ، وهو يقول فى غطرسة :

ـــ أرسلى من يعنى بجوادى ويطعمه أيّتها العجوز ، وأعدّى لى حجرة نظيفة ، وكثيرًا من الماء الساخن ، وزجاجتين من أفضل أنواع الشراب البارد لديك .. هذا لو أن لديكم هنا شرابًا جيّدًا .

كان من الواضح ، من زيّه الفاخر ، وجواده المسرج فى عناية ، أنه بالغ الثراء ؛ لذا فقد انحنت العجوز انحناءة كبيرة ، كادت تضرب رأسها بالأرض ، وهى تقول :

ـــ سمعًا وطاعة يا سيّد الفرسان .

ثم ضربت جرسًا نحاسيًا أمامها ، فظهر شاب مفتـول العضلات ، له لحية كثّة ، أشارت إليه العجوز ، قائلة :

ـــ خذ السيّد إلى أفضل حجراتنا يا (ليفى) ، وأرسل (حزقيال) للعناية بجواده .

صعد (ليفى) بـ (رودريك) إلى حجرته ، التى بدت نظيفـة ، على الرغم من تهالك أثاثها ، ورمق (ليفـى) (رودريك) بنظرة خاصة ، وهو يقول :

ـــ إنها ليست أفضل حجراتنا فى الواقع ، إلا أن لها نافذة تطلّ على الطريق ، وتتيح مراقبته على نحو جيّد ، وبابًا جانبيًا ، يسمح بالفرار عند اللزوم .

تطلَّع إليه (رودريك) طويلًا ، ثم ابتسم قائلًا :

ـــ من الواضح أنك شاب ذكى ، ولكن كيف أمكنك تخمين هذا ؟

ابتسم (ليفى) ابتسامة باهتة ، وقال :

ـــ إنه ليس تخمينًا يا سيِّدى ، وإنما نوع من الاستنباط والفراسة ، فعلى الرغم من إجادتك للعربية ، إلا أن لكنتك الإسبانية واضحة .

قال (رودريك) ، وهو يتطلَّع إليه فى شىء من الإعجاب :

ـــ ولكن الكثيرين هنا كذلك ، وخاصة بعد الاختلاط والزواج بين العرب والأسبان ، طوال ثمانية قرون .

هزَّ (ليفى) رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ هناك فارق صغير ، قد لا يلاحظه أغلب الأندلسيِّين ، إلا أننى أنتبه إليه دائمًا .

قال (رودريك) فى اقتضاب :

ـــ رائع .

ثم استطرد فى حزم ، مواجهًا (ليفى) :

ـــ اسمع أيها الشاب .. أنت من النوع الذى يرُوق لى ، ويمكنك معى أن تربح الكثير ، لو وضعت نفسك فى خدمتى .

أجابه (ليفى) ، وعيناه تبرقان جشعًا :

ـــ أنا رهن إشارتك يا سيِّدى .

ابتسم (رودريك) فى ثقة ، وقال :

ـــ عظيم أيها الشاب .. ابقَ مستيقظًا إذن ، وأرْهِفْ سمعك جيدًا ، فقد أحتاج إليك ، قبل شروق الشمس .

كرَّر (ليفى) فى حماس :

ـــ ستجدنى رهن إشارتك يا سيِّدى .

لم يكد يتمُّ عبارته ، حتى سمع دقَّات متوترة على باب الحجرة ، فاستلَّ خنجره ، وتطلَّع إلى (رودريك) منتظرًا أوامره ، إلا أن (رودريك) أزاحه جانبًا فى صرامة ، وهو يقول :

ـــ من بالباب ؟

أتاه صوت مرتجف يقول :

ـــ إنه أنا يا سيِّدى .. (سينوت) .

هتف (رودريك) فى دهشة ، وهو يفتح الباب :

ـــ ما الذى أتى بك يا (سينوت) ؟.. وكيف بلغت هذا المكان ؟

كان (سينوت) يلهث ، وقد شحُب وجهه من فرط الإرهاق والتعب ، وهو يجيب بكلمات مرتجفة :

ــ إننى أركض بجوادى طِيلَة النهار يا سيِّدى ، ولم أتوقَّف لحظة واحدة ، والجواد يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ، من فَرْطِ التعب والإرهاق ، وكل هذا لِلَّحاق بك ، قبل أن يلحق الفارس الأبيض وزميله .

هتف (رودريك) فى دهشة :

ــ الفارس الأبيض وزميله ؟!.. ماذا تعنى يا رجل ؟

ألقى (سينوت) نظرة حذرة على (ليقى) ، فقال (رودريك) فِى عصبيَّة :

ــ هاتِ ما لديك .

راح (سينوت) يقصّ عليه القصة كلها ، حتى انتهى منها ، وأضاف :

ــ إنهم يتبعون الأثر ، الذى تركه صاحبهم فى حوافر جوادك ، أما أنا فقد انطلقت إلى هنا مباشرة ، ولهذا سبقتهم ، ولا ريب أنهم سيصلون بعد قليل .

عقد (رودريك) حاجبيه ، وراح يفكِّر فى عمق وصمت ، فى حين سأله (سينوت) فى توتُّر :

ــ ماذا ستفعل يا سيِّدى ؟

صاح به (رودريك) فى صرامة :

ــ اصمت .

ثم اتجه نحو نافذة الحجرة ، وتطلَّع منها إلى الطريق ، الذى راحت ملامحه تتلاشى مع غروب الشمس ، وصمت لحظات طويلة ، ثم التفت إلى (ليقى) ، وقال فى حسم :

ــ اسمع أيها الشاب .. أريد جوادًا قويًّا ، وعشرة رجال أشدّاء ، لا يتردَّد أضعفهم فى الفتك برضيع وحيد ، لو نال ثمنًا جيِّدًا لهذا .

أجابه (ليقى) فى حزم :

ــ السَّمعُ والطَّاعة يا سيِّدى .

ألقى إليه (رودريك) بِصُرَّة من العملات الذهبية ، وهو يقول فى حزم :

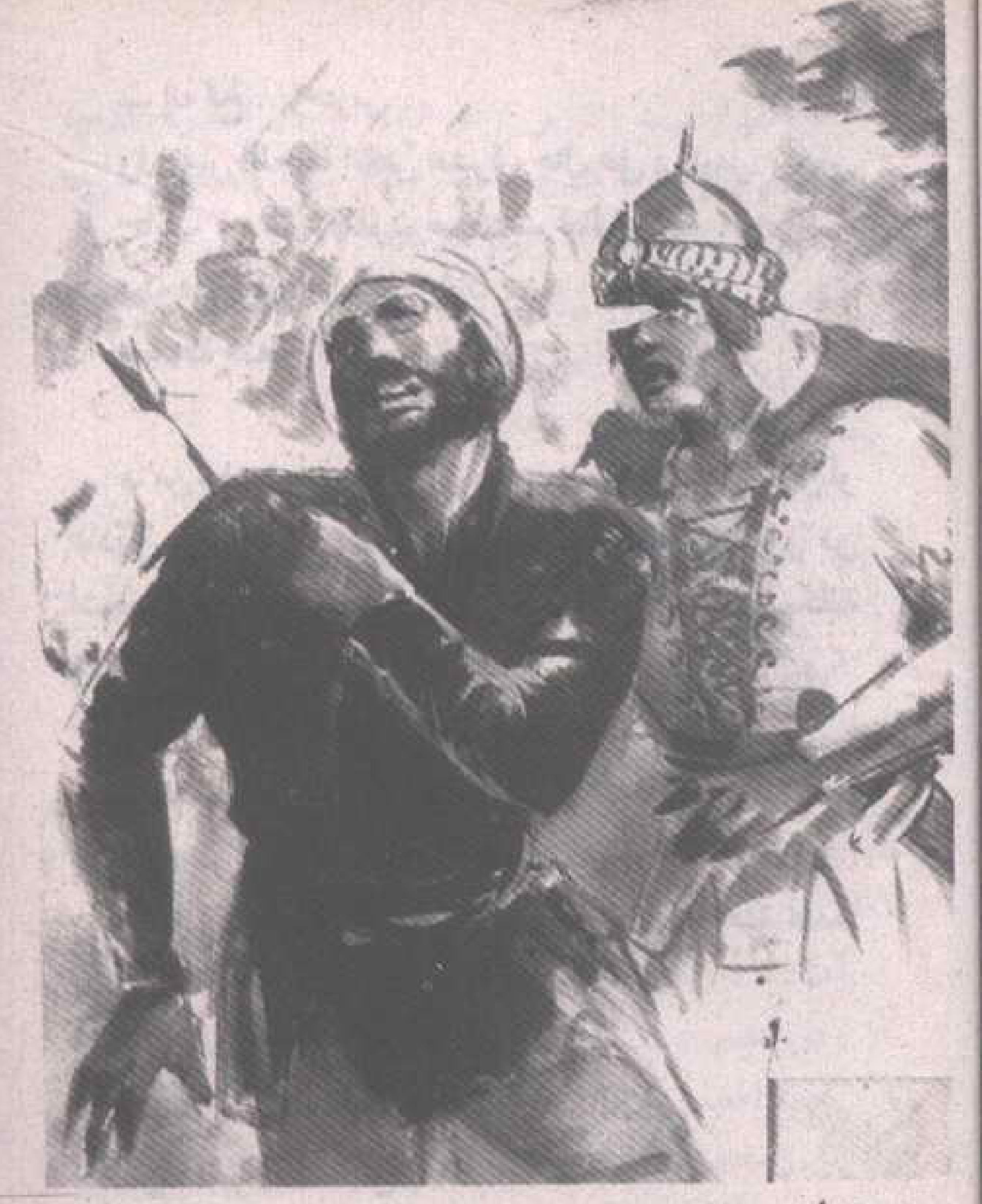
ــ هيَّا .. اذهب .. وأريد الجواد أوَّلًا .

انحنى (ليقى) فى شدة ، وقد أعماه بريق الذهب تمامًا ، وانطلق لتنفيذ الأمر ، فى حين عاد (سينوت) يسأل (رودريك) فى حَيْرَة :

ــ ماذا ستفعل يا سيِّدى ؟

ابتسم (رودريك) ابتسامة خبيثة ، وقال :

ــ سنُعِدّ لفارسك الأبيض ورفيقه حفل استقبال جيدًا يا رجل ..



وفجأة ، شق سهم الهواء ، وانغرس فى كتف (مهاب) من الخلف ..

واتسعت ابتسامته الماكرة ، وهو يضيف :

ـ حفلًا أخيرًا ..

* * *

أشار (مهاب) إلى الجواد الأسود ، ذِى البقع البيضاء ، الذى يقف أمام خان الوادى الكبير ، وهو يقول لـ (فارس) :

ـ يبدو أن هذا هو جواده ، فالأثر ينتهى هنا .

اقترب الاثنان من الخان ، وترجَّلا عن جواديهما ، واقترب (مهاب) من جواد (رودريك) ، ورفع قائمته الخلفية اليسرى ، وأشار إلى تلك الشريحة المعدنية المثبتة فى الحافر ، والتى تشبه فهدًا يهمُّ بالانقضاض ، وقال فى ارتياح :

ـ إنه جواده بالفعل .

رفع (فارس) عينيه ، يدرس الخان فى هدوء ، ثم قال :

ـ إذن فسيقضى ليلته هنا .

ثم تقدَّم مع (مهاب) نحو الخان ، مستطردًا فى حزم :

ـ سيندم على هذا أشدَّ الندم .

ودفع باب الخان ..

وفجأة ، شقَّ سهم الهواء ، وانغرس فى كتف (مهاب) من الخلف ، فأطلق هذا الأخير شهقة ألم ، وهتف وهو يتشبَّث بذراع (فارس) :

— إنه فخ .. احترس ..

وفى نفس اللحظة انقضَّ عشرة رجال على (فارس) ، من كل جانب ، وهم يطلقون صرخات قتالية مخيفة ، اختلطت بضحكة ساخرة ، من أعلى الخان ..

ضحكة شيطان ..

* * *

ما من شك فى أن منشأ (فارس) وتربيته لم يكونا نمطيَّين أو عاديَّين ، فلقد نشأ الفتى على يد شيخ حكيم ، وفارس من أشجع وأقوى فرسان عصره ، وتلقَّى تدريبات قتالية مكثَّفة ومدروسة ، طِيلَة عشرين عامًا كاملة ..

وشاب نشأ هكذا ، لا يهاب الخطر أو الموت أبدًا ..

وعندما انقضَّ الرجال العشرة على (فارس) ، وهم يطلقون صرخاتهم المخيفة ، كانوا يتصوَّرون أن صرخاتهم ، ومفاجأتهم ستحطِّمان مقاومة خصمهم تمامًا ، خاصة عندما يقاتل وحده عشرة رجال ..

ولكن هيهات ..

لقد قُدَّ (فارس) من صخر غير قابل للكسر ..

من صخر (الأندلس) ..

ولقد جاوب (فارس) صرخات الرجال العشرة بصيحة هائلة ، تزلزلت لها قلوبهم ، وهو يستلّ سيفه ، وينقضّ بدوره عليهم كأسدٍ هَصُور ، وليثٍ ضرغام ..

وفى هذه المرَّة ، لم يحاول (فارس) المحافظة على الدماء .. بل أراق دماء الخونة بلا تردُّد ..

أراقها دفاعًا عن حياته ..

وانتقامًا لصديقه ومدرِّبه ..

وراح سيفه يضرب الصدور والأعناق بلا تردُّد أو رحمة ..

وأصابت ذبابة سيف ذراعه ، ومزَّقت شيئًا من حُلَّته البيضاء ، ولوَّثتها ببعض دمه ..

ونهض (مهاب) يلتقط سيفه بيُسراه ، صائحًا :

— لن تهزم الخيانة الشرف أبدًا .

ضرب أحد الرجال العشرة بسيفه ، وتلقَّى على نصله ضربة سيف آخر ، وبدا له (فارس) كبطل أسطورىّ ، يحطِّم أعداءه ، ويَهْوِى على أعناقهم بسيفه ، ويطيح بسيوفهم ودروعهم ..

ثم أصيب (مهاب) فى صدره ، وذراعه ، وفخذه ..

وسقط البطل على ركبتيه ، وسمع (فارس) يصيح به ، وهو يواصل قتاله :

— انهض يا صديقى .. انهض .. لا تسقط أمام هؤلاء الأوغاد .. مهما كان الثمن .

ولكن فجأة ، سقطت شبكة قوية فوق (فارس) ، وارتفع من أعلى الخان صوت (ليڤى) ، وهو يهتف :

— لقد أوقعت به .. اقتنصوه بسرعة .

اندفع من تبقّى من الرجال العشرة نحو (فارس) ، الذى راح يقاوم الشبكة الثقيلة فى عنف ، ويضرب ويدافع بسيفه فى الوقت ذاته ..

ومن أعلى راح (ليڤى) يصرخ :

— أوقفوه .. اجذبوا الشبكة .

تكالب أربعة منهم ، وجذبوا الشبكة من أسفل فى عنف ، فاختلّ توازن (فارس)، على الرغم منه، وسقط على ظهره، وقفز فوقه رجلان، حاولا شلّ حركته، وهو يضرب بسيفه، ويضرب.

ولكن الكثرة تغلب الشجاعة ولا شك ..

وكبّل الرجال (فارس) فى إحكام ، وانتزع أحدهم سيفه ، وبذل (مهاب) أقصى جهده ، لينهض مدافعًا عن تلميذه وصديقه ، وهو يهتف :

— أيها الأوغاد .. أين ذهب شرفكم ؟.. أين الـ .....

هوَت على رأسه ضربة قوية ، مع صوت غليظ يقول :

— اصمت يا رجل .. لقد انتهى أمركما .

كانت الضربة قوية عنيفة ، حتى أن (مهاب) قد سقط وانكفأ على وجهه أرضًا ، وأظلمت الدنيا أمام عينيه ، و.....

وفقد الوعى ..

وعندما سقط منطرحًا على ظهره، رأى (فارس) (سينوت) يهبط من الطابق العلوى، ويبتسم فى سُخرية، قائلًا :

— خسرت هذه المرّة أيها الفارس الأبيض .. ستصل الخريطة إلى (قرطبة) فى موعدها .. ولكنك ستصل قبلها إلى الجحيم .

هتف به (فارس) فى صرامة :

— لا يذهب إلى الجحيم سوى الخونة والكافرين أيها القذر .

أطلق (سينوت) ضحكة ساخرة ، وقال :

— لن نلتقىَ أبدًا إذن .

ثم أشار بيده إلى أحد الرجال ، مستطردًا فى حزم :

— هيًا .. فلننته من هذا الأمر .

رفع الرجل سيفه عاليًا ، وهتف بصوت غليظ :

— سينزف عنقه المقطوع كثيرًا ، وسيلوّث حُلّته البيضاء الأنيقة .

ثم أطلق ضحكة شيطانية ، وهوَى بسيفه على عنق (فارس) ..

وبلا تردُّد ..

***

٥ ــ عدوُّ الليل ..

انحنى قائد الحرس الملكى فى (قشتالة) انحناءة كبيرة ، أمام عرش الملكة (إيزابيلا) ، التى أشارت إليه بالاعتدال ، وسألته فى ترفُّع :

ــ أما من أخبار عن (رودريك) ؟

أجابها قائد الحرس الملكى فى احترام وتبجيل :

ــ وصلتنا رسالة بِوَسَاطَةِ الحمام الزاجل(*) ، تقول إنه قد بلغ خان (الوادى الكبير) .

سألته فى اهتمام بالغ :

ــ هل حصل على الخريطة ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

(*) الحمام الزاجل : هو نوع من الحمام الخاص بنقل الرسائل ، حيث إنه يستطيع العودة إلى وطنه ، مهما بعدت المسافة ، ويطير ألف كيلومتر بلا انقطاع ، وبسرعة كيلومتر فى الدقيقة ، وهو قوى الجسم ، عريض المنقار ، يعطى الزوج منه سنويًّا تسعة أزواج من الزغاليل .

ــ نعم يامولاتى .. لقد حصل عليها .

ابتسمت فى ارتياح ، وأشارت إليه قائلة :

ــ حسنًا .. انصرف أنت .

لم يكد يغادر قاعة العرش ، حتى التفتت الملكة إلى فتاة باهرة الحُسن ، رائعة الجمال ، جمعت فى فتنتها ما بين الجمال الأسبانى ــ المتمثِّل فى شعرها الطويل ، المنسدل على كتفيها ، وحتى وسطها ، فى نعومة ودلال ، وعينيها السوداوين برموشهما الطويلة الآسرة ، وبشرتها البيضاء ــ والشموخ العربى ، بأنفها المرتفع وكبريائها الواضحة .. وقالت الملكة مبتسمة فى تُحبث :

ــ أراهن أنك تنتظرين عودة (رودريك) بفارغ الصَّبر .

لم يبدُ الخجل على وجه الحسناء ، وهى تجيب :

ــ إلى حدٍّ ما .

تأمَّلت الملكة جمال الحسناء ، وقالت :

ــ هل تحبِّينه يا (غالا) ؟

لم تَبْدُ لها ابتسامة (غالا) طبيعية ، وهى تجيب :

ــ أعتقد ذلك يامولاتى .

عقدت الملكة (إيزابيلا) حاجبيها ، وهى تتأمَّلها مليًّا ، ثم لم تلبث أن هزَّت رأسها ، وقالت :

— أتعلمين يا (غالا) .. إنك و (رودريك) تبدوان لى متناسبين تمامًا .

سألتها (غالا) بابتسامة باهتة :

— لماذا يامولاتى ؟

عادت الملكة تهزّ رأسها ، وتقول :

— لأنكما من نفس النوع يا (غالا) .. النوع الذى لايفكّر إلا فى نفسه ، وفى رغباته ، فأنا و (فرناندو) واثقين من أنه ما كان ليخاطر بحياته هكذا ، لولا المكافأة الضخمة ، التى وعده بها الملك .

قالت (غالا) فى هدوء :

— أليس من الطبيعى أن يسعى المرء خلف مايربحه ؟

مطّت (إيزابيلا) شفتيها ، وقالت :

— فى هذا تختلف عن العرب يا (غالا) ، فهم يقاتلون من أجل مبادئهم ، أو إعلاء كلمة دينهم وقيمهم .

ابتسمت (غالا) فى هدوء ، وقالت :

— هذا يَعْنى أننا لانختلف عنهم شيئًا يامولاتى .

قالت (إيزابيلا) فى عصبيّة :

— بل نختلف عنهم كثيرًا .

هزّت (غالا) رأسها نفيًا ، وقالت :

— على العكس يامولاتى .. إن كل إنسان يسعى خلف ربحه ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون هذا الربح ماديًّا ، بل قد يكون معنويًّا .

رمقتها الملكة بنظرة طويلة ، قبل أن تقول :

— أراك قد تحوّلت إلى فيلسوفة يا (غالا) !

انحنت (غالا) أمامها ، وهى تبتسم فى خُبث ، قائلة :

— خادمتك المتواضعة يامولاتى .

هتفت بها الملكة فى فُضُول :

— وأيهما تفضلين يا (غالا) .. الربح المادى أم المعنوى ؟

لم تفكّر (غالا) لحظة واحدة ، وإنما أجابت على الفور :

— مزيج منهما يامولاتى .. إننى أفضّل الكثير من الربح المادى ، مع شىء من الـ .....

بترت عبارتها لحظة ، ثم أردفت فى صوت يحمل رنّة جذَل ضاحكة :

— من الحب .

وفى تلك اللحظة شعرت الملكة بالقلق من وصيفتها الأولى .. وبالخوف ...

* * *

« من لا يهابُ الموت ، يهابه الموت .. » ..

عبارة طالما ردَّدها الشيخ على مسامع (فارس) ..

وطالما حفظها وردَّدها خلفه بدَوْرِه ..

ولكنه لم يتحقَّق منها أبدًا ..

حتى هذه اللحظة ..

لقد هوَى السيف على عنق (فارس) بلا رحمة ، وبطلنا تكبِّل حركته شبكة ثقيلة من حبال قوية ، وأذرع رجال أشِدَّاء ..

والموقف كله يُوحِى بأنه لا أمل فى النجاة ..

إلا إذا ..

وعند حرف الاستثناء (إلا) هذا تنقلب كل الأمور ..

وهذا ماحدث بالفعل ..

لقد هَوَى السيف ، حتى أصبحَ على قِيدِ بُوصات من عنق (فارس) ، ثم تبدَّلت الأمور كلها دفعة واحدة ..

وعلى نحو لم يتوقَّعه مخلوق واحد ..

فجأة ، اندفع سيف قوى يستقبل نصل السيف القاتل ، ليلتقِىَ الاثنان فى ضربة عنيفة ، وبصليل قوى ، تردَّد صداه فى الخان طويلًا ..

والتفتت كل العيون إلى القبضة القوية الممسكة بالسيف ، ثم إلى الذراع المفتولة العضلات ، وإلى صاحبها الزِّنجى القوى ، الصارم الملامح ، ذِى العينين الشبيهتين بعينى الفهد ..

وارتجفت القلوب ..

وقبل أن يتلاشى صدى صليل السيوف ، امتزج بزئير (فهد)، الذى رفع سيفه فى قوة ، مُطيحًا بالسيف القاتل بعيدًا ، ثم هوَى بسيفه على عنق أقرب الرجال إليه ، وأدار السيف فى قوة وسرعة ومهارة ، وضرب به الشبكة القوية أربع ضربات سريعة ، مزَّقت حبالها إربًا ، دون أن تمسَّ ذبابة سيفه شعرة واحدة من (فارس) ..

ثم عاد سيف (فهد) إلى القتال ..

وقفز (فارس) من الشبكة ، بعد أن تحرَّر من قُيُوده ، ورفع سيفه بدَوْرِه ، وانقضَّ على خُصُومه ..

وكانت مبارزة رهيبة ، بين رجلين ، وعشرة أوغاد ..

والعجيب أن الناظر إلى المعركة ، كان يرى أمرًا غريبًا ؛ فلقد كان الرجال يتراجعون فى خوف ، أمام سيفَىْ (فارس) و (فهد) ، على الرغم من أنهم يفُوقُونهما عددًا بأربعة أضعاف ..

ولكن صوت السيوف كان يطغى على صوت العقول ..

لقد راح (فهد) و (فارس) يدوران ويصولان ويجولان ، وسيفاهما يرتفعان وينخفضان ، ويَهْوِيان ويضربان فى سرعة ، وشجاعة ، وبأس ..

وارتجفت العجوز (راشيل) ، وهى تشاهد مايحدث ، وارتجف ابنها (ليفى) ، فى الطابق العلوى ، فأشارت هى إليه أن يلحق بها فى قبوِ الخان ، فأسرع يهبط إليها من سُلّم خلفى ، وهتف بها فى رُعب :

ـــ أمّاه .. إنهما يقاتلان كأسدين .. لقد فقدنا أربعة رجال حتى هذه اللحظة .

أجابته فى صرامة :

ـــ لاترتجف هكذا كالنساء .. أنت تعلم ضرورة أن يربح (القشتاليون) المعركة ، فارتفاع هامة العرب يقضى على هامتنا نحن ، ويمنعنا من تحقيق حُلم بلوغ أرض الميعاد .

تمتم :

ـــ أعلم ياأمّاه .

أمسكت كتفه فى حزم ، قائلة :

ـــ من الضرورى إذن أن ينجح (رودريك) فى بلوغ (قرطبة) .. هل تفهم ؟

صمتا لحظات ، وهو يتطلّع إلى عينيها الصارمتين ، ثم أجاب :

ـــ أفهم ياأمّاه .

قالت فى حزم :

ـــ ردِّد خلفى .. سأبذل مابوسعى لتصل الخريطة إلى (قرطبة) .

ردَّد فى حماس :

ـــ سأفعل .

ربَّتت على كتفه ، قائلة :

ـــ حسنًا .. انطلق إذن ، قبل أن ينتهى القتال ، فلست أظنُّه يُحسَمُ لصالحنا ..

سألها فى قلق :

ـــ ولكن ماذا ستفعلين أنت ؟

أجابته فى صرامة ، لاتناسب عمرها :

ـــ اطمئن .

ثم انتزعت من حائط القبو سكّينًا حادَّة ، ورفعتها مستطردة :

ـ أمُك تعرف من أين تؤكل الكتف .
وأطلقت ضحكة شيطانية مخيفة ..

* * *

شارف القتال نهايته فى الخان ، فلقد سقط ثمانية من الرجال ، الذين استأجرهم (رودريك) ، وبقِىَ اثنان ، أمام سيفَىْ (فهد) و (فارس) ..

وأدرك الرجلان أنه لا أمل لديهما ، أمام سيفين عربيين مثلهما ، فألقى أحدهما سيفه ، وهتف فى رُعب :

ـ الرَّحمة !! الرَّحمة !!

وكأنما كانت هذه إشارة لزميله ، الذى ألقى سيفه بدوْرِه ، وهتف :

ـ إننا نستسلم يا سادة العرب .

أعاد (فهد) سيفه إلى غِمده على الفور ، فى حين قلب (فارس) شفتيه ، وغمغم فى ازدراء :

ـ يا للحقارة والجُبن !

رفع (فهد) عينيه إلى أعلى ، ثم رفع يده يشير إلى أعلى السُّلَّم ، فتتبَّع (فارس) إشارته ، وهتف :

ـ هذا الوغد !!

كان (فهد) يشير إلى (سينوت) ، الذى ألصقه الرُّعب الهائل بالحائط ، منذ بدأ القتال ، ومنذ ظهر (فهد) ، دون أن يجرؤ على تحريك أنامله قيدَ أنْمُلَة ..

وعندما قفز (فارس) إلى السُّلَّم ، ليبلغ (سينوت) ، انحلَّ تسمُّر هذا الأخير ، وانتفض انتفاضة عنيفة ، وأطلق صرخة رُعب ، ثم انطلق يعدُو محاولاً الفرار ، إلا أن (فارس) لحق به ، فانهار (سينوت) جاثيًا على ركبتيه ، وهتف فى ارتياع وضراعة :

ـ الرَّحمة يا فارس الفرسان !! الرَّحمة !!

وضع فارس سيفه على عُنُق (سينوت) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أين ذهب (رودريك) ؟.. وماذا فعل بالخريطة ؟

هتف (سينوت) فى رُعب :

ـ لا يمكننى أن أخبرك .. سيقتلوننى لو فعلت .. لا يمكننى .

زمجر (فارس) ، وهو يقول فى لهجة صارمة مخيفة :

ـ ستخبرنى أيها الوغد ، وإلا بترت عنقك النحيل هذا من قاعدته ، بضربة سيف واحدة .



وضع فارس سيفه على عُنق (سينوت) ، وهو يقول فى صرامة :
ـ أين ذهب (رودريك)؟.. وماذا فعل بالخريطة ؟

جحظت عينا (سينوت) ، ودارتا فى محجريهما ، من شدة الرُّعب ، وبدا من الواضح أنه نهبة لشقَّين من الفزع الهائل ، وأنّه يعجز عن اتخاذ قراره ، بالبَوْح بما لديه ، خشية شىء ما ، جعل (فارس) يهتف به :

ـ ما الذى تخشاه أكثر من الموت يا رجل ؟

انبعثت ضحكة العجوز من أسفل ، وهى تهتف :

ـ العذاب .

التفت إليها (فارس) و (فهد) فى حركة حادَّة ، ورأياها تجلس إلى جوار (مهاب) الفاقد الوعى ، وبيدها سكِّين حادَّة ، وهى تستطرد فى شماتة أشبه بالجَذَل :

ـ والآن عليكما أن تختارا بدوْرِكما .. إما الرحيل وحدكما ، أو مشاهدة عُنق رفيقكما ، وأنا أبتره ..

ووضعت نصل السكِّين على عُنق (مهاب) ، وأطلقت ضحكة ..

ضحكة شيطان مريد ..

* * *

٦ ــ شرف الفرسان ..

استيقظ الحكيم الشيخ ، فى معسكره بالقرب من (غرناطة) ، على وقع حوافر جواد يقترب من المخيّم ، فهبّ من فراشه ، ومدّ يده يلتقط سيفه ، وهو يغمغم :

ــ كم صار السيف ثقيلًا ، منذ بلغ عمر مشيب الشعر ربع قرن من الزمان .

غادر خيمته ، ووقف أمامها حاملًا سيفه ، ومحاولًا اختراق حجب الظلام ، لتبيُّن ذلك الفارس ، الذى يقترب من المخيّم على صهوة جواده ..

وعلى ضوء القمر والنجوم ، رأى الفارس يتجاوز آخر صفوف الأشجار ، ويتجه إليه مباشرة ، فاشتدّت قبضته على مقبض سيفه ، وهو يتمتم :

ــ أعدوٌّ هو أم صديق ؟.

توقّف الفارس أمامه مباشرة ، وقال فى هدوء :

ــ مساء الخير أيها الوزير ..

بدت ملامح الفارس واضحة نسبيًا ، على ضوء القمر ، ولم يكد الشيخ يتبيَّن هذه الملامح ، حتى ترك سيفه يسقط أرضًا ، وهو ينحنى نصف انحناءة ، قائلًا فى احترام واضح :

ــ مولاى (محمد) .. سيد (بنى الأحمر)، وأمير (غرناطة)(*) مرحبًا بجلالتك فى مخيّمى المتواضع .

هبط الأمير (محمد) عن صهوة جواده ، وهو يقول :

ــ مرحبًا بك أنت فى (غرناطة) أيها الوزير .

ابتسم الشيخ ، وهو يقول :

ــ لم أعد وزيرًا يا مولاى .. إنما أنا مجرّد شيخ وحيد .

هزّ الأمير رأسه ، وقال :

(*) بنو الأحمر : هم سلالة (أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس الخزرجى) ، الذى لُقّب بـ(ابن الأحمر) ، والذى كان جنديًا موفور العزم والجرأة ، ثم تمت بيعته أميرًا لـ(غرناطة) ، ودخلها فى أواخر رمضان عام ٦٣٥ هـ (أبريل ١٢٣٨ م) ، وظلّ نسله يحكمها حتى سقوط (الأندلس) ، عام ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) .

ـ أنت الذى رفض المنصب أيها الشيخ .. لقد عرضته عليك منذ مايقرب من عشرين عامًا ، عندما أتيت من (قرطبة) ، وكنت أتمنَّى الاستفادة من حكمتك وخبرتك ، ولكن .....

لم يتمّ الأمير عبارته ، وكأنما لم يجد داعيًا لذلك ، فى حين انحنى الشيخ ، وغمغم :

ـ للضرورة أحكام يامولاى .

هزَّ الأمير رأسه متفهّمًا ، ثم قال بعد لحظات من الصمت :

ـ أتعلم مانقله لى رجالى اليوم ؟

اكتفى الشيخ بابتسامة هادئة ، دون أن ينبس ببنتِ شفَة ، فتابع الأمير ، وكأنما لم يكن بدوره ينتظر جوابًا :

ـ لقد أخبرونى أن فارسًا أبيض الثياب ، أخضر السيف والنّطاق ، فضىّ الخوذة ، قد ظهر فى طرقات (غرناطة) هذا الصباح ، على جواد بلاسرج أو لجام .

ثم رمق الشيخ بنظرة جانبية ، مستطردًا :

ـ أتعلم بمَ ذكَّرنى الزّىّ والجواد الأبيض ؟

لم يجب الشيخ هذه المرَّة أيضًا ، فاعتدل الأمير وسأله :

ـ أهو ابنه ؟

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، وقال هذه المرَّة :

ـ إنه هو يامولاى .

تنهَّد الأمير ، وعاد يسأله :

ـ أمن أجله رفضت المنصب ، ورفضت الإقامة فى قصر الحمراء ، وفضّلت العيش فى هذا المخيّم ، على مشارف (غرناطة) ؟

أجاب الشيخ فى هدوء :

ـ نعم يامولاى .

ابتسم الأمير ، وقال :

ـ أراهن أنك قد صنعت منه فارسًا لايشقُّ له غبار .

لم يجب الشيخ ، وإنما اكتفى بابتسامة هادئة ، جعلت الأمير يسأله فى فضول واضح :

ـ من علّمه القتال ؟

أجابه الشيخ فى اقتضاب :

ـ (مهاب) .

رفع الأمير حاجبيه ، وهتف :

ـ (مهاب) ؟!.. أتعنى قائد فرسان والده ؟

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، فهزَّ الأمير رأسه فى إكبار ، ثم عقد كفَّيه خلف ظهره ، وسار قائلًا :

ـ يا للرُّوعة !.. إذن فقد احتضنتم الابن ، ومنحته أنت علمك وحكمتك ، فى حين علَّمه (مهاب) القتال والضرب والنِّزال .. صدِّقنى يا رجل .. لقد صنعتم من هـذا الشاب معجزة .

ثم التفت إلى الشيخ يسأله :

ـ قُلْ لى : هل تعلم لماذا أتيتك وحدى ، دون رفيق أو حارس ؟

أجابه الشيخ :

ـ لأنك أردت أن تعلم .

ابتسم الأمير ، وقال :

ـ كنت واثقًا من أنك وراء كل هذا ، وأننى أستطيع الإفادة من فارسك هذا ، من أجل (الأندلس) .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يستطرد :

ـ وأنا هنا ، لتنسيق هذا معك .

بدا الارتياح على وجه الشيخ ، وهو يقول :

ـ أنا رهن إشارتك يا مولاى .

وبدأ فصل جديد من فصول ملحمة الفارس ..

فارس (الأندلس) ..

* * *

كان الموقف دقيقًا للغاية فى الخان ، والعجوز تهدِّد بذبح (مهاب) الفاقد الوعى ، أمام عينى (فارس) و (فهد) ، ولقد شعر (فارس) بالغضب إزاء الموقف ، وقال للعجوز فى صرامة وغِلْظَة :

ـ ابتعدى عن (مهاب) أيتها الحَيْزَبُون ، وإلا فأقسم أن أقطعك إربًا ، لو مسست شعرة واحدة من رأسه .

أطلقت العجوز ضحكة شيطانية أخرى ، وقالت :

ـ بل أقسم أنا أن أذبحه كالشاه ، لو لم تغادرا المكـان بأقصى سرعة .

انعقد الغضب مع حاجبى (فارس) ، وهو يقول :

ـ أيتها العجوز اللَّعينة .

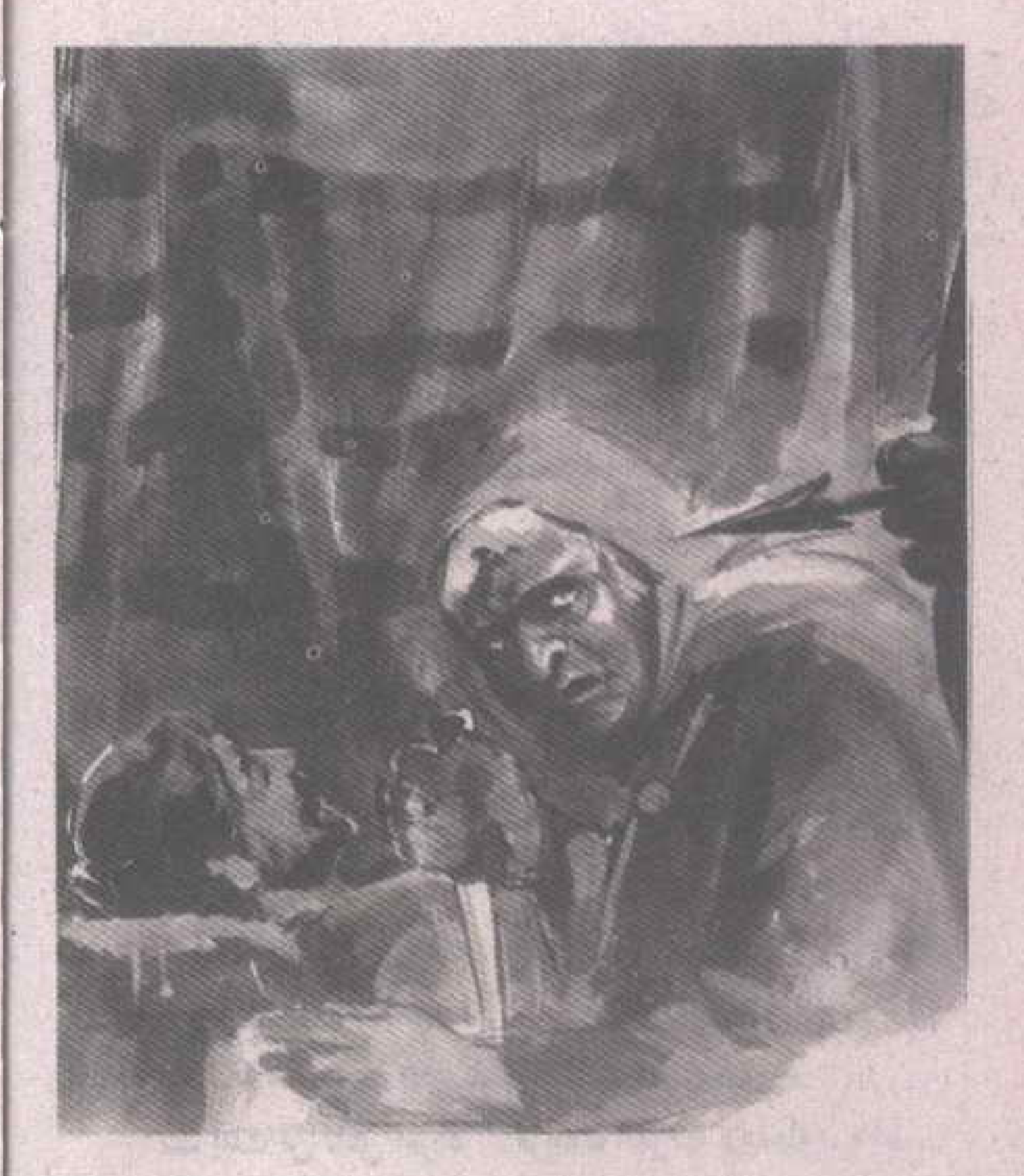
ثم التفت إلى (فهد) ، وقال :

ـ صوِّب سهمك إلى رأسها يا (فهد) .

وبأسرع من لمح البصر ، كان (فهد) قد انتزع قوسَهُ وسهمه ، وصوَّب الأخير إلى رأس العجوز ، التى انتفضت فى خوف ، ثم هتفت فى عصبيَّة :

ـ إنك لن تقتل امرأة .. فرسان العرب لايفعلون هذا .

أجابها (فارس) فى صرامة :



والعجوز تهدد بذبح (مهاب) الفاقد الوعى ، أمام عينى (فارس) و (فهد)

ـــ كل شىء مُباح فى الحروب أيّتها الحقيرة ، وهذا الزّنجى ، الذى يصوِّب إليك سهمه ، يأتمر بأمرى ، وينفِّذ كل ما أمليه عليه دون تردُّد أو تفكير ، وأقسم أن آمره بقتلك شرّ قتلة ، لو مسست شعرة واحدة من رأس (مهاب) .

تردَّدت العجوز فى خوف ، ثم قالت فى حِدَّة :

ـــ وماذا لو أننى لا أخشى الموت ؟

أجابها فى صرامة :

ـــ أنت قُلْتِها أيّتها العجوز .. العذاب يخيف أكثر من الموت ، و (فهد) لن يُطلق سهمه على قلبك ، بل على أحشائك ، حيث تكون الآلام مُبرِّحة هائلة ، وكأن النيران تستعر فى أعماقك ، فتتمنّين الموت ألف مرّة ومرّة .

شَحُب وجه العجوز ، وارتعد السكّين فى قبضتها ، فى حين استغلّ (سينوت) انشغال (فارس) بالحديث معها ، واستلّ خِنجره المسموم فى حَذَر ، ثم رفعه عاليًا ، وصرخ :

ـــ مُتْ أيها الفارس الأبيض .

وهوَى بالخِنجر على قلب (فارس) ..

* * *

ابتسم (فرناندو الخامس)، عندما دلفت (إيزابيلا) إلى قاعته ، وقال :

ـــ واعزيزتى (إيزابيلا) ، يلُوح لى أن ابتسامتك تحمل نبأ انتصار ما ، فهل أنا على حقٍّ ؟

ابتسمت قائلة :

ـــ تمامًا ياعزيزى .

ثم جلست على مقعد واسع ، مُوَشًّى بالذهب ، وهى تستطرد :

ـــ لقد وصلت رسالة أخرى ، بالحمام الزاجل ، يقول فيها (رودريك) إنه ما زال يحتفظ بالخريطة ، وهو فى طريقه إلى هنا .

تمتم (فرناندو) :

ـــ عظيم .

والتقط كأسًا من الخمر ، ناولها إليها ، وهو يلتقط كأسًا أخرى ، قائلًا :

ـــ ستتيح لنا هذه الخريطة اختراق دفاعات العرب ، وهدم آخر حصونهم فوق رءوسهم ، حتى ترتفع رايتنا فوق (الأندلس) كلها .

وارتشف رشفة من كأسه ، ثم سأل الملكة :

ـــ أخبرينى ياعزيزتى ، مادام (رودريك) هذا يجيد إرسال الرسائل بواسطة الحمام الزاجل هكذا ، فلِمَ لايرسل الخريطة بالوسيلة نفسها ، بدلًا من أن يركض بها طِيلَة الليل هكذا ؟

أجابته وهى ترتشف كأسها فى بطء :

ـــ لأن الخريطة على رُقعة ثقيلة ، يعجز الحمام الزاجل عن التحليق بها .

مطَّ شفتيه فى استنكار واستهجان ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، وقال :

ـــ لابأس .. إن غدًا لناظريه قريب .. سيصل (رودريك) بالخريطة ، ونعُدّ نحن خطتنا ، و.....

ضرب كأسه بكأسها ، مستطردًا فى جَذَل :

ـــ ونشرب نخب النصر .

وابتسما معًا ..

* * *

كان (سينوت) قريبًا من (فارس) للغاية ، حتى أنه لم يتصوَّر أن يخطئ خنجره قلب بطلنا ، إلا أن (فارس) تحرَّك فى سرعة ، ومال جانبًا فى رشاقة ، ثم رفع قبضته ليقبض على معصم (سينوت) بأصابع من فولاذ ، ويقول فى غضب صارم :

— أيها الوغد الزنيم .. أأردت طعنى من الخلف ؟

صرخ (سينوت) فى ألم ورُعب :

— الرّحمة أيها الفارس .. الرّحمة .. كانت لحظة جُنون .

سأله (فارس) فى صرامة :

— أين ذهب (رودريك) بالخريطة ؟.. أجب وإلّا مزّقتك إربًا .

كان رُعب (سينوت) قد بلغ مبلغه هذه المرّة ، فهتف :

— لقد رحل على صهوة جواد آخر ، وترك جواده هنا للتضليل .

صرخت العجوز (راشيل) :

— لا تخبره شيئًا .

ولكن (سينوت) تجاهل صيحتها ، وهو يتابع :

— لقد اتخذ الطريق المباشر إلى (قرطبة) ، وسيبلغها قبل الفجر .

دفعه (فارس) ، قائلًا فى ازدراء :

— اذهب أيها الجبان الحقير .

سقط (سينوت) أرضًا ، ثم هبّ صارخًا ، وهو يرفع خِنجره عاليًا :

— كان ينبغى أن تنتزع خِنجرى أيها العربى ، أو......

استدار إليه (فهد) فى حركة سريعة ، وأطلق نحوه سهمه ، فانغرز السهم فى قلب (سينوت) تمامًا ..

وجحظت عينا (سينوت) ..

وسقط خِنجره المسموم فى يده ..

وسقط هو خلفه جثة هامدة ..

وبسرعة مدهشة ، وقبل أن يستقرّ جسد (سينوت) على الأرض ، كان (فهد) يضع سهمًا جديدًا فى قوسه ، ويصوّبه إلى العجوز ، التى ارتجفت على نحو واضح هذه المرّة ، وهتفت :

— لا تقتلنى أيها الفارس .

رفع (فارس) رأسه إليها ، وقال فى صرامة :

— أبعدى السكّين عن عُنق (مهاب) .

هتفت :

— ليس قبل أن أحصل منك على وعد .

قال فى صرامة :

— وعد بماذا ؟

أجابته وهى ترتجف :

— بألا تمسّ شعرة واحدة منّى .

أجابها بلا تردُّد :

— لك هذا .

أبعدت السكّين عن عُنق (مهاب) ، فهتف (فارس) بـ (فهد) :

— افحصه يا (فهد) .

أسرع (فهد) يفحص (مهاب) ، فى حين هبط (فارس) إلى حيث العجوز ، ودفعها أمامه ، قائلًا :

— سأبقى على حياتك ، ولكننى سأضعك فى القبوِ حتى ننصرف ..

رمقته بنظرة ملؤها البغض والكراهية ، دون أن تنبس ببنتِ شَفَة ، وهو يدفعها أمامه إلى القبْوِ ، ولكنه لم يكد يغلق بابه خلفها ، حتى ابتسمت ابتسامة خبيثة مقيتة ، وقالت :

— لا أحد يهزم (راشيل) بهذه السهولة أيها العربى .

وأسرعت إلى عدّة أقفاص ، تحوى عددًا من الحمام الزاجل ، وأخرجت واحدة من الحمام ، ذات صدر قوى ، ووضعتها فى قفص خالٍ ، ثم التقطت رُقعة صغيرة ، وراحت تخطُّ عليها بضع كلمات فى سرعة ، حتى انتهت منها ، وعادت

إلى الحمامة ذات الصدر القوى ، وربطت الرُّقعة إلى ساقها فى إحكام ، ثم اتجهت بها إلى نافذة صغيرة ، فى أعلى جدار القبو ، وهى تقول فى سُخرية :

— هيّا .. انطلقِى إلى أسيادك ، وأخبريهم أن (راشيل) ستظلّ مخلصة لهم دَوْمًا ، حتى يغادر آخر عربى أرض (الأندلس) .

وأطلقت الحمامة ..

وخفَق الطائر البرىء بأجنحته ، وهو ينطلق نحو (قرطبة) ، دون أن يدرك أنه يحمل فى قدمه رَقّ الخيانة والغدر ..

أما (فارس) ، فقد أغلق باب القبو على العجوز ، وأعاد سيفه إلى غِمده ثم عاد أدراجه إلى حيث يقف (فهد) ، وسأله فى قلق :

— كيف حال (مهاب) ؟

لم يُجِبْ (فهد) بحرف واحد ، وإنما أشار إلى جراح (مهاب) ، التى انهمك فى تضميدها ، فاقترب منه (فارس) ، وفحص (مهاب) فى اهتمام ، ثم تنفّس الصُّعَداء ، وقال :

ــ حسنًا .. إنه فاقد الوعى فحسب ، ولكن جراحه تحتاج إلى عناية خاصة .

ونهض مستطردًا فى حزم :

ــ احمله إلى الشيخ يا (فهد) .. إنه الوحيد الذى يمكنه معاونته الآن .

ظهر شىء من القلق فى عينى (فهد) ، فاستطرد (فارس) :

ــ لقد انطلق الجاسوس عائدًا إلى (قرطبة) ، ولابدَّ من اللَّحاق به ، قبل أن تقع الخريطة الدفاعية فى أيدى سادة (قشتالة) .

قالها وأسرع نحو جواده ، ووثب على صهوته ، وهو يجذب معرفته ، هاتفًا به :

ــ هيًا يا (رفيق) .. أعلم أنك متعب بحقٍّ ، ولكننى سأطالبك بجهد إضافى يا صديقى ، وإلا فقدنا أثر الجاسوس .

ثم انطلق بجواده الأبيض ، مستطردًا :

ــ هيَّا يا (رفيق) .. من أجل (الأندلس) .

وغاب الاثنان وسط الظلام ..

* * *

انطلق (رودريك) بجواده ، ينهب الأرض نهبًا ، فى طريقه إلى (قرطبة) ، حيث تنتظره مولاته (إيزابيلا) ، ملكة (قشتالة) ، ووصيفتها الفاتنة (غالا) ..

وابتسم (رودريك) ، وهو يسترجع ذكريات غرامه مع (غالا) ، وجمالها الفتَّان ، وهتف بنفسه :

ــ أسرع يا (رودريك) .. أسرع ، لتنعم بدفء (غالا) وحبِّها ..

فجأة ، تخيَّل إليه أن لوقع حوافر جواده صدى واضحًا ، يتردَّد من بعيد ، ثم لم يلبث أن انتبه إلى أن هذا ليس صدى حوافر جواده ، وإنما وَقْعُ حوافر جواد آخر ، فعقد حاجبيه ، وغمغم فى قلق :

ــ عجبًا !! .. يبدو أنه هناك من يتبعنى .

مال بجواده جانبًا ، وأوقفه إلى جوار شجرة ضخمة ، ثقلت أفرعها بثمار الفواكه الناضجة ، وقفز من على صهوة الجواد ، وربط لجامه إلى فرع كبير ، ثم استلَّ سيفه ، واختفى خلف الجذع الضخم ، يراقب الطريق ، وهو يقول فى خفوت :

ــ نعم .. هناك شخص يقترب على صهوة جواد قوى .. تبًا لظلام الليل ، الذى يعجزنى تعرُّفه .

ثم ابتسم وهو يستطرد فى سُخرية :

ـــ ولكن من يحتاج إلى تعرُّف فارس أبيض مغرور ، قليل الخبرة .

اختفى خلف الشجرة ، وتابع خِفْيَة ذلك الفارس ، الذى يقترب فى سرعة ، حتى صار على قيد متر واحد منه ..

وهنا قفز (رودريك) من خلف الشجرة ، ورفع سيفه فى وجه الجواد ، مطلقًا صرخة قوية ، رفع لها الجواد قائمتيه الأماميتين ، وأطلق صهيل فزع ، فى نفس اللحظة التى انقضّ فيها (رودريك) على الفارس ، صارخًا :

ـــ مُتْ أيها الغبِىّ .. مُتْ .

وطعن الفارس فى صدره ..

وغاص سيفه فى الصدر حتى مقبضه ..

* * *



٧ ـــ السَّهم ..

كان الظلام والليل يمتدان بلا نهاية ..

والقمر يتوسّط السماء ..

ووَقْعُ حوافر جوادين يملأ الأسماع ..

هكذا كان المشهد ..

كان (فهد) يعدُو بجواده ، وقد امتزج لونهما بلون الليل البهيم ، وقد أمسك (فهد) لجام جواد آخر ، رقد فوقه (مهاب) ، الذى لم يستَعِدْ وعيه بعد ..

وكان الصمت هو رفيق (فهد) كالمعتاد ..

ثم قطع (مهاب) هذا الصمت ..

قطعه وهو يتأوَّه ، ويغمغم :

ـــ أين أنا ؟.. ماذا حدث ؟

استعاد وعيه وانتبه إلى المشهد، فاعتدل يستقرّ على صهوة جواده ، وهو يهتف :

ـــ (فهد) ؟!.. إلى أين ننطلق ؟.. أين (فارس) ؟

أوقف (فهد) الجوادين ، والتفت إلى (مهاب) ، و.....

وتكلَّم ..

تكلَّم (فهد) فى حزم واقتضاب ، وبصوت عميق .. عميق وكأنه يأتى من أعماق سحيقة ..

قال كلمتين فحسب :

ـ يكمل مهمَّته .

كانت واحدة من المرَّات النادرة ، التى سمع فيها (مهاب) صوت (فهد) ، طوال عشرين عامًا ، حتى أنه أخذ بالجواب لحظات ، قبل أن يهتف :

ـ يا إلهى !.. هل انطلق وحده خلف (رودريك) ؟.. وإلى أين يتجهان بالله عليك ؟

أجابه (فهد) فى اقتضاب :

ـ (قرطبة) .

هتف (مهاب) :

ـ (قرطبة) ؟!

ثم جذب عِنان جواده ، وهتف وهو يديره فى حزم :

ـ لن نتركه وحده .. عُدْ بنا يا (فهد) .. سنلحق به .

لم يجب (فهد) ، أو ينبس ببنت شفة ، وكأنما أفرغ كل

ما لديه فى الكلمات القليلة ، التى تحدَّث بها إلى (مهاب) ، وإنما أدار عِنان جواده وجواد (مهاب) ، وعاد ينطلق بهما إلى طريق (قرطبة) ..

وفى توتُّر بالغ ، قال (مهاب) :

ـ لم يكن ينبغى أبدًا أن نترك (فارس) وحده ..

خُيِّل إليه أنه يتحدَّث إلى نفسه ، عندما لاذ (فهد) بالصمت التام ، فاستطرد :

ـ إنه عنيد كما تعلم ، وتنقصه الخبرة العملية ، ومن الممكن أن يُوقِعَه (رودريك) فى فخٍّ ما ، أو يصرّ هو على مطاردة هذا الأخير ، عَبْرَ حدود (الأندلس الصغرى) ، إلى أرض الأعداء .

جاوبه الصمت المُطْبَق مرَّة أخرى ، فجذب عِنان جواده فى قوة ، محتملًا آلام جراحه ، وهو يهتف فى حِدَّة :

ـ حسنًا يا (فهد) .. سأتبع مبدأك .. لا داعى للكلام .. دَعْنَا ننطلق بأقصى سرعة للَّحاق بـ (فارس) ..

ثم مطَّ شفتيه ، واستطرد فى توتُّر بالغ :

ـ قبل أن نفقده .. إلى الأبد ..

* * *

انعقد حاجبا (رودريك) فى شدة ، وهو يحدّق فى وجه الفارس، الذى أغمد سيفه فى صدره، قبل أن يهتف فى دهشة بالغة :

— (ليفى) ..

لهثَ الشاب ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وقال فى ضعف :

— سيِّدى .. أردت اللَّحاق بك ؛ لأخبرك أن الفارس الأبيض قد .. قد هزمه الرجال .. وسيلحق بك ، و...... ، و......

أطلق شهقة أخيرة ، ثم لفظ آخر أنفاسه ، وتحجَّرت عيناه ، فاعتدل (رودريك) ، وقال فى حدَّة :

— غبىّ .

ثم تطلَّع إلى الطريق ، وأضاف فى قلق :

— ذلك الفارس يطاردنى إذن .. ياله من موقف !.. هذا يضع أمامى أسلوبين فحسب ، إما أن أنتظره ، وأقاتله ، أو.. أو أنطلق بأقصى سرعة لأسبقه ، وأبلغ (قرطبة) .

صمت لحظات مفكرًا ، ثم قال فى حزم :

— لا تخاطر يا (رودريك) .. المهم أن تبلغ (قرطبة) ، و......

أطلق ضحكة عصبيَّة ، وأضاف :

— وذراعَىْ (غالا) .

ثم قفز على صهوة جواده ، وجذب لجامه ، وانطلق به نحو الهدف ..

نحو (قرطبة) ..

* * *

لم يتوقَّف جواد (فارس) الأبيض الأصيل عن العَدْوِ ، طِيلَة الليل، على الرغم من الرحلة الطويلة ، التى قطعها ، من مخيَّم الشيخ إلى (غرناطة) ، ثم إلى خان (الوادى الكبير) ، وعلى متنه (فارس) ، الذى يحثّه على المواصلة طِيلَة الوقت ، منشدًا له بعض الأشعار الحماسية ، كما لو كان صديقًا بشريًّا عاقلًا ..

وعندما تلوَّن الشفق بألوان الفجر الأولى ، ربَّت (فارس) على عُنُق جواده (رفيق) ، وقال :

— ابذل أقصى جهدك يا (رفيق) .. إننا نقترب من حدود مملكة العدوّ ، ولو بلغها ذلك (القشتالى) قبلنا ، ستتعرَّض (الأندلس) لخطر ماحق .

وكأنما أدرك الجواد العربى ما يقوله فارسه ، فقد زاد من سرعته ، وراحت قوائمه تنهب الأرض نهبًا ، على الرغم من أنها

كانت تبدو — للناظر من بعيد — وكأنما لا تمسّ الأرض قطُّ ، حتى لاح جواد (رودريك) من بعيد ، يعدُو نحو تلّ يكسُوه العُشب الأخضر ، فهتف (فارس) :

— أسرع يا (رفيق) .. أسرع يا صديقى .. لابدَّ أن نبلغه ، قبل أن يبلغ هذا التل

وفى نفس اللحظة لمح (رودريك) (فارس) ، وهو يحثُّ جواده على اللّحاق به، فأطلق ضحكة ساخرة، وهو يقول :

— خسرت يا فارس العرب .. ما إن أصعد ذلك التل ، حتى ألتقِىَ بحامية الدفاع عن (قرطبة) ، التى سيهبُّ فرسانها كلهم للذّودِ عنّى ، وقتلك شرّ قِتلة .

كان الاثنان ينطلقان بأقصى سرعتهما ، ولكن المسافة التى تفصلهما ظلّت ثابتة تقريبًا ، وراح (رودريك) يقترب من التلّ فى سرعة ، فقال (فارس) فى ضيق :

— لن نلحق به هكذا يا (رفيق) .

ثم جذب معرفة جواده فى حزم ، فصهل الجواد صهيلًا قويًا ، وكأنما يعترض على إيقافه ، ولم يبلغ السّباق منتهاه بعد ، إلا أنه أطاع الأمر ، وتوقّف ، وهو يضرب الأرض بحوافره فى غضب ..

وفى هدوء وثقة ، حمل (فارس) قوْسَهُ وسهامه ، وثبّت قاعدة سهمه فى وترِ قوسه ، وجذب الوتر فى إحكام ، وسدّد سهمه ، و .....

وأطلقه ..

وفى نفس اللحظة ، كان (رودريك) يطلق ضحكة ظافرة عالية ، ويهتف :

— انتهى السباق أيها العربى .. لقد ربح (رودريك) ، و .....

بتر عبارته بغتة ، مع صهيل ألم من جواده ، الذى تعثّر فجأة ، وأسقط فارسه أرضًا ، فنهض (رودريك) يهتف فى غضب :

— اللّعنة !.. أما وجدت سوى هذه اللحظة لتتعثّر ، أيها الجواد الـ .....؟

اختنقت بقية الكلمة فى حلقه ، وهو يحدّق فى ذلك السهم ، الذى انغرس فى فخذ جواده ، ثم أدار رأسه فى حركة حادّة ، وتطلعُ فى ذُهول إلى (فارس) ، الذى يعدُو نحوه ، على صهوة جواده الأبيض ، ثم عاد يحدّق فى السهم ، هاتفًا :

— مستحيل !!.. من هذه المسافة ؟!..

اقترب وقع حوافر جواد (فارس) منه فى سرعة ، فعقد حاجبيه ، مستطردًا فى حِدَّة .

ـــ ولكن لا .. لن يهزم عربى (رودريك) .

وبسرعة ، اختطف قَوْسَهُ وسهمه ، وصوَّب السهم نحو صدر جواد (فارس) العربى الأصيل ..

وأطلقه ..

وكان السهم مسدَّدًا فى إحكام ..

فى إحكام شديد ..

* * *



٨ ـــ المواجهة ..

اقتحمت الملكة (إيزابيلَّا) جناح الملك (فرنانـدو) ، وهى تهتف فى توتُّر بالغ :

ـــ مصيبة أيها الملك .. مصيبة .

هبَّ الملك من فراشه ، وهو يقول فى قلق :

ـــ أيَّة مصيبة ياعزيزتى (إيزابيلَّا) تلك التى تحدث قُرب الفجر ؟.. هل هاجم العرب حدودنا ؟

عقدت حاجبيها ، وهى تقول :

ـــ لم يَحِنْ وقت هذا بعد .

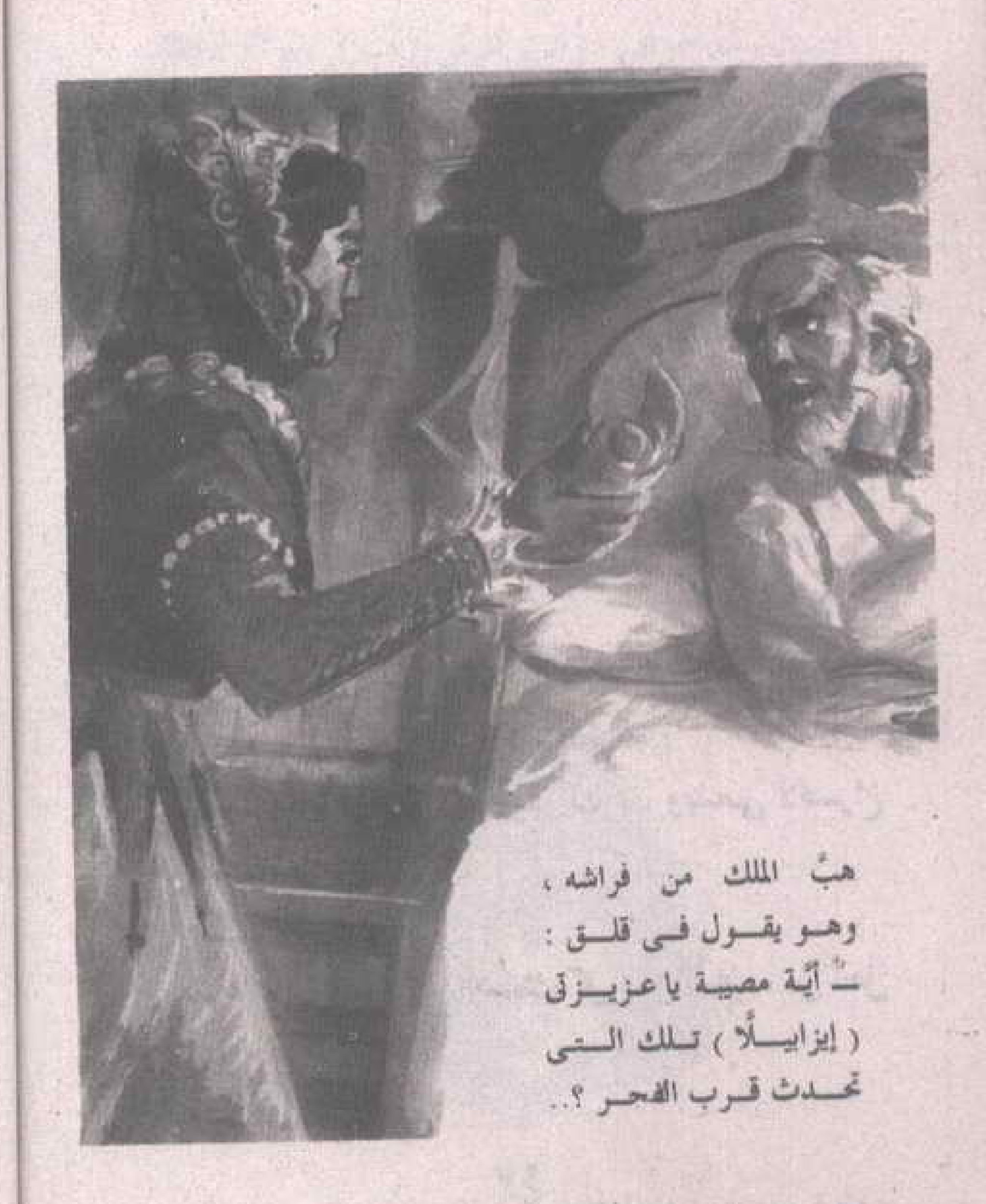
ثم دفعت إليه رُقعة صغيرة ، مستطردة :

ـــ هناك فارس يطارد (رودريك) ، ويسعى لانتـزاع الخريطة منه .

هتف فى ضيق :

ـــ فارس واحد ؟!.. آأصابك كل هذا الذُّعر ، من أجل فارس واحد ؟!

قالت فى غضب :



هبَّ الملك من فراشه ، وهو يقول فى قلق :
ــ أيّة مصيبة يا عزيزتى (إيزابيلا) تلك التى تحدث قرب الفجر ؟..

ــ إنك لم تقرأ بعد ذلك الوصف ، الذى وصفته (راشيل) لذلك الفارس .

تثاءب وهو يسألها :

ــ من (راشيل) هذه ؟.. وصيفة جديدة من وصيفاتك ؟.. كيف لم يسبق لى أن رأيتها ؟

حَدَجَته بنظرة مُخْنَقَة ، وهى تقول :

ــ اطمئن أيها الشره.. إنها ليست واحدة من وصيفاتى ، ولن يسعدك أبدًا أن تراها ، فهى الصورة المناقضة تمامًا لوصيفتى (غالا) ، التى تتسلَّل إلى حجرتها سرًّا، فى ليالى الشتاء الباردة .

عقد حاجبيه ، وهو يقول فى خشونة :

ــ حسنًا .. ماذا تقول (راشيل) هذه عن الفارس ؟

أجابته فى حِدَّة :

ــ تقول إنه يرتدى زيًّا أبيض اللون ، ويتمَنطق بنطاق وسيف أخضرين ، ويضع على رأسه خُوذة من الفضة ، و.....

قاطعها فى انفعال :

ــ ويَمْتَطِى جوادًا بلا سرج أو لجام .

قالت فى حزم :

ـــ تمامًا .

انعقد حاجباه فى شدة ، وتمتم :

ـــ ولكن هذا مستحيل !

وتحسَّس جُرحًا قديمًا فى ذراعه ، قبل أن يستطرد فى كراهية :

ـــ الموتى لايعودون إلى الحياة أبدًا .

قالت فى صوت حاسم :

ـــ ولكن أبناءهم يكملون المسيرة .

التفت إليها ، يسألها فى حزم :

ـــ ماذا تعنين ؟

أجابته فى لهجة ذات مغزًى خاص :

ـــ هل تذكر كيف اختفى ذلك الوزير ، واختفى معه الابن الرضيع ، بعد مصرع الجميع ؟

أجابها فى انفعال :

ـــ إننى أذكر هذا بالطبع .

ثم عاد يتحسَّس جُرح ذراعه ، مستطردًا فى بُغض :

ـــ لقد اختفى الزِّنْى أيضًا ، حتى أننا لم نعثر عليه أبدًا .

قالت مبتسمة فى خُبث :

ـــ ها هو ذا قد عاد .

ضرب قبضته فى قائم فراشه ، صائحًا :

ـــ اللَّعنة !!

ثم بدا وكأنه قد امتلأ بحماس فائق ، وهو يستطرد :

ـــ أخبرينى .. أين نجد (رودريك) وذلك الفارس الأبيض ؟

أجابته فى حماس مماثل :

ـــ لقد اتخذا الطريق المباشر إلى (قرطبة) .

ثم أضافت فى لهفة :

ـــ هل نرسل فرقة لنجدة (رودريك) ، والقضاء على ذلك الفارس ؟

هزَّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ لا .. إرسال فرقة كاملة قد يثير العرب ، لتبدأ بيننا وبينهم حربٌ ، لم نستعدَّ لها بعد .

وابتسم ابتسامة واثقة ، مستطردًا :

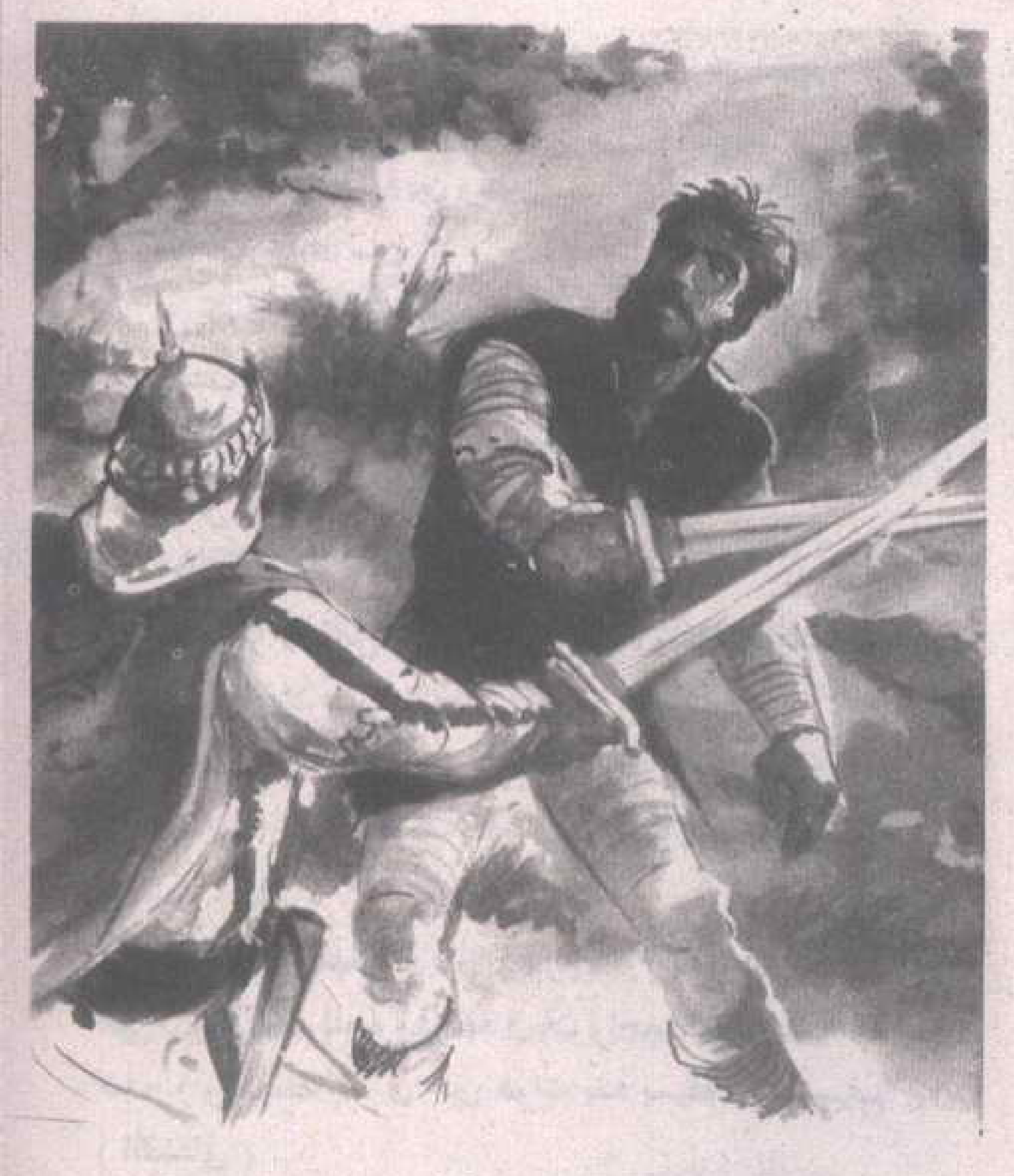
ـــ ثم إن (رودريك) هذا ـــ حسبما أعلم ـــ فارس عظيم ، لايحتاج إلى فرقة كاملة لهزيمة فارس واحد ، مهما كان هذا الفارس .

واتسعت ابتسامته ، وهو يستطرد :
ـ مالم يكن غرامه لـ (غالا) قد استنزف حماسه وبأسه .
سألته فى حِدَّة :
ـ دَعْكَ من هذا ، وأخبرنى ماذا ستفعل ؟
مطَّ شفتيه ، وقال :
ـ سأرسل ثلاثة من أفضل فرساننا فحسب .
وعاد حاجباه ينعقدان ، وهو يضيف :
ـ وسأطلب منهم تمزيق ذلك الفارس إربًا ، وإحضار ثوبه الأبيض إلى هنا .. تحت قدمىَّ ..
وفى أعماقه تأجَّجت نيران الشر ..

* * *

كان السهم ينطلق نحو صدر الجواد العربى تمامًا ، دون أن يحاول (فارس) الابتعاد بجواده ، أو الميل به يَمنةً أو يَسْرةً ، حتى أن (رودريك) هتف فى ظَفَر :
ـ لقد وقعت أيها العربى ..
ولكن هَيْهات ..
لقد كان (رودريك) الأسبانى يواجه فارسًا عربيًّا متميِّزًا ..

كان يواجه (فارس الأندلس) ..
لقد انتظر (فارس) ، حتى صار السهم على قَيْدِ أمتار قليلة من صدر جواده ، ثم جذب معرفة الجواد ، صائحًا :
ـ الآن يا (رفيق) .
وفى مشهد رائع ، وأداء مُذهل ، لم يَرَ (رودريك) مثله من قبل ، فى حياته كلها ، رفع الجواد الأبيض قائمتيه الأماميتين ، وقفز ..
بل طار فى الهواء ..
وشاهد (رودريك) ـ فى ذُهُول ـ سهمه يمُرق أسفل الجواد الأبيض ، الذى تجاوز السهم بوثبة مدهشة ، قبل أن يستقرَّ مرَّة أخرى على قوائمه ، ويواصل عدْوَه نحوه ..
ومن شدة المفاجأة ، لم يتحرَّك (رودريك) قِيدِ أنمُلَة ، حتى بلغه (فارس) وجواده ، واعتدل (فارس) على صهوة الجواد الأصيل ، وقال :
ـ الخريطة أيها (القشتالى) .
عقد (رودريك) حاجبيه فى غضب ، واستلَّ سيفه ، قائلًا :
ـ اهبط وخذها بنفسك أيها العربى .



والتقى الفارسان ، والتقى سيفاهما ، وتعالى صليل السيوف فى الوادى ..

وثب (فارس) من على ظهر جواده إلى الأرض ، واستل سيفه بدوره ، وهو يقول فى حزم :

ـ كما تشاء يا رجل .

ابتسم (رودريك) فى سُخرية ، محاولًا النّيل من ثقة خصمه ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت تتصوَّر نفْسك فارسًا ، فتقود جوادك دون سرج أو لجام ، وتقاتل دون درع .

أشرقت الشمس فى اللحظة نفسها ، وانعكست أشعتها على الخوذة الفضية ، والسيف الحادّ ، فبدا (فارس) أشبه ببطل أسطورى ، وهو يجيب :

ـ قاتل يا رجل ، وكفَّ عن اللغو والحديث .

ألقى (رودريك) درعه جانبًا ، وهو ينقض هاتفًا :

ـ فليكن .

والتقى الفارسان ، والتقى سيفاهما ، وتعالى صليل السيوف فى الوادى ..

مبارزة قوية هى ..

السيوف تتصادم وتتباعد ..

الأنفاس تعلو وتهبط ...

القلوب تنبض وتخفق ..
والفارسان يتقاتلان ..
لم تكن مجرَّد مبارزة بين رجلين ..
أو مصارعة فارسين ..
بل كانت قتال مبدإ ومنشإ وهدف ..
وهتف (رودريك) ، وقد أنهكه القتال :
ـ رائع أيها العربى .. إنك تقاتل كفارس صنديد ، على الرغم من صغر عمرك .
أجابه (فارس) ، وهو يهوِى عليه بسيفه :
ـ العمر لا يقاس بالسنوات يا رجل ، وإنما بالخبرات .
أطلق (رودريك) ضحكة ساخرة ، وهتف :
ـ هكذا ؟!.. ذُق إذن خبرة فارس قديم .
قالها وتراجع فى حركة حادَّة ، ثم انقضَّ بسيفه على قلب (فارس) مباشرة ..
وفى سرعة ومهارة ، مال (فارس) جانبًا ، ثم قفز إلى أعلى ، وتحرَّكت قدمه وذراعه فى آن واحد ، فضربت قدمه صدر (رودريك) ، فى حين هَوَت يده بسيفه على سيف (القشتالى) ..

وطار سيف (رودريك) بعيدًا ، وانغرس فى الأرض الخضراء ، فى حين سقط صاحبه على ظهره ، وهو يهتف :
ـ اللَّعنة !!
وبقفزة ماهرة ، أصبح (فارس) عند رأس (رودريك) تمامًا ، ثم رفع سيفه ، وضرب به صدر هذا الأخير ..
وتجمَّدت الدماء فى عروق (رودريك) ، وتصوَّر أن النَّصل الحادَّ سيغوص فى صدره ، إلا أنه لم يلبث أن شعر بدهشة عارمة ، عندما اكتفت ذبابة النَّصل بمسّ صدره ، لتقطع ذلك النّطاق الجلدى الرَّقيق ، المربوط على صدره ، وتلتقط خريطة الدفاعات ، وتلقِى بها عاليًا فى الهواء ، لتلتقطها قبضة (فارس) فى رشاقة مدهشة ..
وفى هدوء وثقة ، فضَّ (فارس) الخريطة ، وقال فى ارتياح :
ـ إنها هى .
ثم استدار ، وابتعد فى هدوء ، فنهض (رودريك) يهتف به فى دهشة :
ـ لماذا لم تقتلنى ؟

أجابه (فارس) فى بساطة ، وهو يعيد سيفه إلى غِمده ، ويلتقط من جيبه — فى حرص — قِنّينة صغيرة ، داخل غلاف جلدى سميك :

— لست أهْوَى إراقة الدماء بلا طائل .

هتف (رودريك) فى دهشة :

— بلا طائل ؟

لم يلتفت إليه (فارس) ، وإنما راح يسكب محتويات القِنّينة على الخريطة ، التى تصاعدت منها أدخنة كثيفة ، وراحت تتآكل فى سرعة ، فهتف (رودريك) فى جَزَع :

— ماذا فعلت بها ؟

أشار (فارس) إلى القِنّينة ، قائلًا :

— إنه زيت الزاج الأخضر(*) .. إنه يحرق الأوراق بلا نار .

حدّق (رودريك) فى الخريطة فى ذُهُول ، وقد استحالت إلى رماد محروق ، وتساقطت كهشيم أسود ، بين قدمى (فارس) ، الذى ركلها فى لامبالاة ، ثم اتجه نحو جواده ، فصاح به (رودريك) فى غضب :

(*) زيت الزاج الأخضر : هو الاسم القديم لحمض الكبريتيك .

— ولكنك لم تفز بعد .

قفز (فارس) على ظهر جواده ، وهو يقول فى هدوء :

— اذهب إلى حال سبيلك يا رجل .. لقد حصلت أنا على ما أبتغيه .

صاح (رودريك) فى حِدّة :

— هذا ما تظنّه .. إننى أحفظ تلك الخريطة عن ظهر قلب .

أدار (فارس) جواده ، وهو يقول :

— هُرَاء .

صاح به (رودريك) :

— بل حقيقة أيها العربى .. إنكم تركّزون دفاعاتكم فى (قصر الحمراء) ، وعلى الحدود الشمالية الشرقية ، و.....

قاطعه (فارس) فى حزم :

— كَفَى .

ثم عاد يستدير إليه بجواده ، مستطردًا فى ضيق .

— إنك لم تترك لى الخيار .. هيّا .. استعِدّ سيفك .

قفز (رودريك) يلتقط سيفه ، ورفعه هاتفًا :

— المبارزة حتى الموت .

هبط (فارس) من على صهوة جواده ، قائلًا :

ـ نعم .. حتى الموت .

ومرّة أخرى ، تقارعت السيوف ..

ولكن فى هذه المرّة ، كان القتال يختلف ..

لم يكن هناك مجال للعفو أو التنازل ..

كانت مبارزة حاسمة ..

وحتى الموت ..

* * *



٩ ـ القتال ..

حثّ (مهاب) جواده على الإسراع ، على الرغم من آلام جراحه ، التى تضاعفها ارتجاجة الجواد ، وهتف بـ (فهد) ، على الرغم من ثقته فى عدم الحصول على جواب ، من هذا الأخير :

ـ تُرى .. هل نصل فى الوقت المناسب يا (فهد) ؟

ودون أن ينتظر جوابًا ، أشار إلى الأفق مستطردًا :

ـ لقد أشرقت الشمس تقريبًا ، وهذا يعنى أن (رودريك) قد بلغ (قرطبة) أو كاد .

لم يجبْ (فهد) كالمعتاد ، وإنما حاول أن يزيد من سرعة جواده ، الذى ينطلق بأقصى سرعته بالفعل ، فى حين تابع (مهاب) :

ـ أخشى ما أخشاه أن يواصل (فارس) المطاردة ، ويعبُر الحدود خلف (رودريك) ، فقد يتعرَّف أحد زيِّه ، ويدرك حقيقة انتمائه .

بدا وكأن ذلك الخاطر قد زاد من انزعاجه ، فقد دفعه إلى لكز جواده ، وهو يهتف :

ـــ ربّاه !!.. لابدّ أن نُسرع يا (فهد) .. لابدّ .

وانطلق الاثنان يسابقان الرياح ..

* * *

التقى سيفا (فارس) و (رودريك) ، وتقارعت السيوف ، إلى جوار ذلك التلّ ، الذى يفصل ما بين (قشتالة) و (غرناطة) ، وبدا (رودريك) شديد العزم والحزم هذه المرّة ، وهو يضرب سيف (فارس) بكل قوته ، هاتفًا :

ـــ لن تربح هذه المرّة أيها العربى ، إننى أمسك هذا السيف من قبل حتى أن تُولد أنت .

صدّ (فارس) السيف بحدّ سيفه ، ورفعه فى قوة ، وهو يقول :

ـــ المهم أن تمسكه على نحو جيّد .

ـــ تراجع (رودريك) ، ثم انقضّ بسيفه على صدر (فارس) ، وهو يقول :

ـــ أتريد دليلًا على قولى ؟

قفز (فارس) جانبًا ، وتفادى السيف ، وهو يقول :

ـــ إننى أحترق شوقًا لهذا .

أدار (رودريك) سيفه فى مهارة ، ثم أطلقه نحو معدة (فارس) ، هاتفًا :

ـــ ها هو ذا الدليل .

كانت ضربة ماهرة بحقّ ، إلا أن (فارس) نجح فى صدّها ، وهو يقول :

ـــ دليل على ماذا ؟

عقد (رودريك) حاجبيه فى غضب ، وهو يقول :

ـــ من الواضح أنك قد تلقّيت تدريبًا جيّدًا أيها العربى ، فأنت أوّل من أمكنه صدّ ضربتى الخاصة .

أجابه (فارس) ، وهو يعاود هجومه :

ـــ إنها ضربة عادية ، طالما تبادلتها مع مدرّبى .

تعالى صليل سيفيهما ، و (رودريك) يسأله :

ـــ من مدرّبك هذا ؟

أجابه (فارس) :

ـــ إنه أفضل عربى يحمل السلاح ، فى هذا العصر .

هتف (رودريك) ساخرًا :

ـــ هُراء ..

كان من الواضح ، على الرغم من قُوّتهما ، ومهارتهما القتالية العالية ، أن أحدهما يحتاج إلى جُهد رهيب ؛ لهزيمة الآخر ، وأن نتيجة الصراع صعبة الاستنتاج ..

وفى أعماقه ، اعترف (فارس) بأن (رودريك) هذا واحد من أعظم الفرسان ، وأنه لايضاهيه فى الواقع سوى مدرّبه (مهاب) ..

ثم فجأة انقلبت الموازين ..

انقلبت مع ظهور ثلاثة من فرسان (قشتالة) ، على قمة التلّ ..

ولم يكد (رودريك) يلمح رجاله ، وهم يهبطون التلّ ، حتى أطلق ضحكة ظافرة ، وهتف :

— خسرت هذه المرّة حقًّا أيها العربى .. وسيُراق دمك على مشارف (قرطبة) .

وفى هذه المرّة شعر (فارس) بقلق حقيقى ؛ فلو انضمّ الفرسان الثلاثة إلى (رودريك) ، بكل قوة وبأس هذا الأخير ، فسيَعْنِى هذا أن الهزيمة ستكون من نصيبه .. حتمًا ..

* * *

انحنت (غالا) أمام ملكتها ، وهى تقول فى صوت رخيم هادئ :

— مولاتى .

أشارت إليها (إيزابيلا) بالنهوض ، وسألتها فى فُضول واضح :

— هناك شىء يشغلنى ، وأرغب فى سؤالك عنه يا (غالا) ، ولكننى أريد جوابًا صريحًا ، واضحًا ، حاسمًا .

وعقدت حاجبيها ، وهى تستدرك فى صرامة :

— وإلا طردتك من خدمتى إلى الأبد .

أحنت (غالا) رأسها الجميل ، وهى تقول :

— أنا رهن إشارة مولاتى ، وأقسم أن أجيبها بكل الصراحة والوضوح .

سألتها (إيزابيلا) :

— مهما كان السؤال ؟

أجابتها (غالا) على الفور ، دون أن تتردّد لحظة واحدة :

— مهما كان السؤال يامولاتى .

ابتسمت (إيزابيلا) فى ارتياح ، ومالت نحوها تسألها :

— هل تحبّين (رودريك) ؟

وبلا تردُّد فى هذه المرَّة أيضًا ، أجابتها (غالا) :

ـــ نعم .

تراجعت (إيزابيلا) ، وعيناها تتسعان ، وكأنما أدهشها الجواب ، وعبَّرت عن دهشتها بقولها :

ـــ عجبًا !!.. لم أتوقَّع هذا .

سألتها (غالا) على نحو مباشر :

ـــ لماذا يامولاتى ؟

هزَّت كتفيها ، وقالت :

ـــ لم أتصوَّرك تحبِّين .

ابتسمت (غالا) ، قائلة :

ـــ كل امرأة ، فى هذا العالم ، تحتاج إلى الحبِّ يا مولاتى ؛ لأن هذا جزء من أنوثتها وطموحها ، على عكس الرجل ، الذى يمكنه إشباع رجُولته وطموحه من خلال عمله ونجاحه .

سألتها (إيزابيلا) فجأة ، فى شىء من الحِدَّة :

ـــ وماذا عن (فرناندو) ؟

خفضت (غالا) عينيها ، وأجابت :

ـــ وهل يمكننى اعتراض مشيئة مولاى الملك ؟

رمقتها (إيزابيلا) بنظرة شكّ طويلة ، ثم سألتها فى بطء :

ـــ ماذا تفعلين لو قتل أحدهم (رودريك) ؟

رفعت (غالا) عينيها ، وقالت فى حِدَّة :

ـــ أقتله .

هتفت (إيزابيلا) ، وقد أدهشها الجواب :

ـــ تقتلينه ؟!

ثم أطلقت ضحكة طويلة ، مستطردة :

ـــ هل تحبِّينه إلى هذا الحدّ ؟

واعتدلت مردفة ، دون أن تنتظر جوابًا :

ـــ استعدِّى إذن ياعزيزتى (غالا) ، فـ (رودريك) يواجه الآن فارسًا عربيًّا صنديدًا ، وقد ينتهى الأمر لغير صالح فارسك .

وأطلقت ضحكة أخرى ، وهى تغادر المكان ، فى حين بقيت (غالا) لحظات ، وقد احتقن وجهها ، ثم لم تلبث أن عقدت حاجبيها ، وقالت فى حزم :

ـــ لن تختلف النتيجة ، بالنسبة للفارس العربى يا مولاتى ، فإما أن يقتله (رودريك) .. أو أقتله أنا .

وكان هذا قسَمًا ..

أو نبوءَة ..

* * *

تضاعفت قوة (رودريك) ، وتضاعف حماسه ، وهو يضرب سيف (فارس) بسيفه ، ويصرخ :

ـــ خسرت أيها العربى خسرت .. لقد وصل رجالى .

كان (فارس) يعلم أنه على حق ، فلا قِبَلَ له بمواجهة فارس رهيب كـ (رودريك) ، مع ثلاثة آخرين فى آن واحد ..

وراح (رودريك) يطلق ضحكات مجلجلة ، تموج بالظفر والشماتة ، حتى وصل الرجال الثلاثة ..

وكان على (فارس) أن يواجه الأربعة ..

وعلى الرغم من استحالة انتصاره هذه المرة ، راح (فارس) يقاتل فى بسالة منقطعة النظير ، فى حين هتف (رودريك) :

ـــ أريده حيًا .. لاتقتلوه .

ثم انقضَّ بسيفه على (فارس) ..

وفى هذه المرَّة نجح سيفه ، وأطاح بسيف (فارس) ..

ومع ضحكات (رودريك) الشامتة ، انقضَّ الفرسان الثلاثة على (فارس) ، وكبّلوا حركته تمامًا ، فهتف فى غضب :

ـــ يا للعار !.. أى فارس أنت يا (رودريك) ؟

أطلق (رودريك) ضحكة متشفية ، وهو يقول :

ـــ فارس (قشتالى) أيها العربى .

هتف (فارس) فى ازدراء :

ـــ هُرَاء .. إنك لاتستحق لقب الفارس قطُّ ، فالفارس الحق يقاتل بذراعه ، ، لايدعو الآخرين للتكالب على خصمه .

مطَّ (رودريك) شفتيه ، وقال :

ـــ لست افهم هذا المنطق أيها العربى .. ماأفهمه هو أن الفارس الحق من يربح معاركه بأيّة وسيلة .

قال (فارس) فى احتقار :

ـــ ليس هذا مبدأ الفرسان .

رفع (رودريك) سيفه ، وقال :

ـــ إنه مبدأ (رودريك) إذن .

وأطلق ضحكة ساخرة ، قبل أن يستطرد :

ـــ أبلغ هذا المبدأ لمن ستلتقِى بهم فى الجحيم ، ممن أرسلتهم إليه قبلك .

ثم هتف بزملائه :

ـــ أحنوا عُنُقه .

حاول الثلاثة أن يجبروا (فارس) على الانحناء ، إلا أنه قاوم فى بأس شديد ، وهو يقول فى صرامة :

— لا أيها (القشتالي) .. لن ينحني عربي أمامك قطُّ .

أطلق (رودريك) ضحكة عالية ، أكثر سخرية ، وهو يقول :

— لا بأس أيها العربي .. لا تنحنِ .

ثم رفع سيفه عاليًا ، مستطردًا :

— اذهب إلى الجحيم واقفًا .

وأطلق نصل سيفه نحو عنق (فارس) ..

***



١٠ — الختام ..

كان (رودريك) يطلق ضحكة ساخرة شامتة ظافرة ، عالية ، وهو يهوى بسيفه على عنق (فارس) ، وقد أيقن تمامًا من النصر ..

ثم هوَت صاعقة القدر على عُنقه هو ..

فجأة ، احتبست ضحكته في حلقه ، وجحظت عيناه في ألمٍ وذُهول ، وأطلق الفرسان الثلاثة شهقة ذُعر وذُهول ، وهم يحدِّقون فيما أصابه ..

لقد مَرَقَ سهم حادّ في الهواء ، وانغرز في عُنُق (رودريك) ، مخترقًا حنجرته ، ونفذ من مؤخرة عنقه ..

وترنَّح (رودريك) ..

ترنحَّ لحظة واحدة ..

ثم هوَى ..

وسقط جاسوس (قرطبة) جثة هامدة ..

وأدار (فارس) عينيه إلى الجهة ، التي انطلق منها السهم ..

وبنظرة واحدة أدرك كل شىء ..

فهناك .. عند تلّ قريب ، كان جواد أسود (أدهـم) ينطلق ، وعلى متنه زنجى متين البُنيان ، مفتول العضلات ، يلقم سهمًا آخر لقوسه ، وخلفه جواد يمتطيه رجل أشيب الفَوْدَيْن ، عريض المنكبين ..

وفى غمرة المفاجأة ، دفع (فارس) جسده إلى الخلف ، وأسقط الفرسان الثلاثة أرضًا معه ، ثم تخلّص من قبضاتهم ، وهبَّ واقفًا على قدميه ، وهو يهتف :

ـــ الآن اختلفت الأمور .

اختطف سيفه ، فى نفس اللحظة التى انقضَّ عليه فيها الفرسان الثلاثة ..

ودار سيفه على سيوفهم ..

كان يتلقّى ضربة سيف على سيفه ، ويتفادى أخرى فى رشاقة ، ويدفع قدمه فى صدر الثالث ..

كان يقاتل فى بأس منقطع النظير ..

وجندل سيفه واحدًا من الفرسان الثلاثة ..

ثم وصل (فهد) و (مهاب) ..

وتراجع أحد الفارسين الباقيين ، وقفز على صهوة جواده ، وانطلق به هاتفًا :

ـــ من الحماقة أن يقاتل المرء فى معركة خاسرة .

ووجد الفارس الثالث نفسه وحيدًا ، أمام سيوف أبطالنا الثلاثة ، فألقى سيفه هاتفًا فى حَنَق :

ـــ حسنًا .. إننى أستسلم .

أعاد الثلاثة سيوفهم إلى غِمدها ، وقال (فارس) للرجل :

ـــ هيّا .. اذهب .

لم يصدّق (القشتالى) نفسه ، فأسرع يعتلى متن جواده ، وينطلق به عائدًا إلى (قشتالة) ..

والتفت (مهاب) إلى (فارس) ، وسأله فى لهفة :

ـــ هل استعدت الخريطة ؟

أجابه (فارس) :

ـــ نعم ياصديقى .. لقد استعدتها ، ودمّرتها .. حمدًا لله على سلامتك أنت .

ثم رفع عينيه إلى (فهد) مستطردًا :

ـــ أشكرك يا (فهد) .. لقد أنقذت حياتى مرّتين .

لم يجب (فهد) ، وإنما لاح فى عينيه بريق امتنان ، وانحنى أمام مولاه ، ثم وثَب فوق جواده ، ولكزَهُ فى مهارة ، وانطلق به مختفيًا فى الأفق ..

وهتف (فارس) فى دهشة :

ــ إلى أين يذهب ؟

ابتسم (مهاب) ، وتحسّس جراحه فى ألم ، وقال :

ــ لاتقلق نفسك بشأنه .. إنه كجواد برّى ، لايمكنه أن يتقيّد بمجتمع منتظم ..

ثم ربّت على كتف (فارس) ، مستطردًا :

ــ المهم أنك قد ربحت معركتك يافتى .. معركتك الأولى ..

* * *

عقد (فرناندو) حاجبيه فى غضب ، وهو يهتف :

ــ استعاد الخريطة ؟!.. كيف ؟

أجابته (إيزابيلا) ، والحَنَق يملأ كل حرف تنطق به :

ــ لقد قتل (رودريك) ، وواجه مع رفيقين له فرسانك الثلاثة ، وقتل أحدهم .

صاح (فرناندو) فى سُخط :

ــ اللّعنة !

وارتشف رشفة من كأس الخمر بين يديه ، واستطرد :

ــ هذا يَعْنِى أن محاولتنا الأولى لهزيمة العرب ، وطردهم من (الأندلس) قد فشلت .

قالت مُختنِقَة :

ــ المهم ألا تفشل المحاولة الثانية .

قال فى حدّة :

ــ لن تفشل .

وشرد ببصره لحظات ، ثم أضاف :

ــ ولكننى لن أسعى مرّة أخرى لسرقة خرائط دفاعية .

سألته فى دهشة :

ــ ماذا ستفعل إذن ؟

صمت لحظات ، ثم التفت إليها ، وقال فى حزم :

ــ سأسعى لاختراق حصنهم الحصين .

وجلس على عرشه ، مستطردًا :

ــ قصر الحمراء .

عقدت حاجبيها ، وهى تسأله :

ــ لكن كيف ؟.. أنت تعلم أنهم يُولُونَهُ اهتمامًا بالغًا ، ويحرصون عليه أشد الحرص ، فهو آخر حصونهم .

ابتسم فى خُبث ، قائلًا :

ــ لايمكنك اقتحام حصن حصين بالقوة .

سألته فى اهتمام :

ـــ كيف يمكنك اقتحامه إذن ؟

أشار إلى رأسه ، وأجاب :

ـــ بالعقل والحيلة .

سألته وقد بلغ فضولها مبلغه :

ـــ كيف ؟

أطلق ضحكة ماكرة قصيرة ، وقال :

ـــ دعى الأمر لى هذه المرّة ياعزيزتى ، وسأريك كيف يعمل الرجال ..

وأطلق ضحكته الماكرة مرّة أخرى ، فى حين اعتدلت (غالا) ، التى تسترق السمع من الحجرة المجاورة ، وقالت فى بغض وكراهية :

ـــ اقتحم قصر الحمراء أو لاتقتحمه يامولاى ، ولكن (غالا) لن تترك ثأرها أبدًا ..

وأخرجت من طيّات ثيابها خنجرًا حادًّا ، وهى تستطرد :

ـــ سأقتل ذلك الفارس العربى الأبيض ، مهما كان الثمن ..

قالتها وتألّقت عيناها ببريق مخيف ..

بريق الثأر ..

* * *

أطلق (فارس) تنهيدة قوية ، وهو يقود جواده ، إلى جوار جواد (مهاب) ، الذى التفت إليه يسأله :

ـــ ماذا لديك ؟

أجابه (فارس) :

ـــ كنت أفكّر فيما حدث هذه المرّة .

ابتسم وهو يسأله :

ـــ وما الذى توصّلت إليه ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا :

ـــ أظنّنى أحتاج إلى مزيد من الخبرة .

ضحك (مهاب) ، وقال :

ـــ ستحصل عليها مع الوقت .

سأله (فارس) :

ـــ أتظنّنى قد أحسنت الفعل هذه المرّة ؟

ربّت (مهاب) على كتفيه ، وهو يقول :

ـــ لقد كنت رائعًا .

سأله :

ـــ وهل يمكننى أن أستمر فى عمل هذا ؟

ضحك (مهاب) مرّة أخرى ، وقال :

ـــ لا يوجد مخلوق واحد ، فى العالم أجمع ، يمكنه أن يجيب سؤالك يا (فارس) ..

وربَّت على كتفه مرّة أخرى ، مستطردًا :

ـــ ستدرك هذا وحدك .

وحده !! ..

كم هى صادقة هذه الكلمة ..

كم ستنطبق على حياة (فارس) فيما بعد ..

لقد شاء القدر أن يواصل (فارس) رحلته وحده ؛ لإعلاء راية العرب فى قلب (الأندلس) ..

أن يقاتل وحده أوراق التاريخ ، المتساقطة عن شجرة الحياة ، فى خريف أعظم حضارات العرب ..

وأن يبقى وحده الفارس ..

فارس (الأندلس) .. •

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٤٦٨٤
٢ / ٠٠٣ / ٢٦٦ / ٩٧٧



١

فارس الأندلس

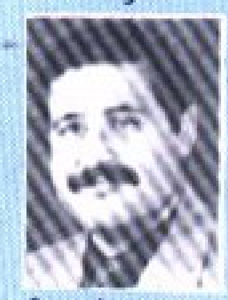
من البطـولات العربيـة
فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

جاسوس قرطبة

- ماذلك السّر الغامض ، الذى يحيط بمنشأ (فارس الأندلس) ؟
- من ذلك الجاسوس ، الذى أرسله ملوك (قشتالة) ، من (قرطبة) إلى (غرناطة) ؟
- تُرى من يربح المعركة ، فى أيام (الأندلس) الأخيرة ؟.. (فارس) ، أم (جاسوس قرطبة) ؟
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وعِش عصر فرسان (الأندلس) .

الرواية القادمة : الأميرة الأسيرة

المؤلف



د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع